من بلاغة القرآن
فى مشتبه النظم دراسة تطبيقية
على سورة البقرة

الدكتور

محمود شعبان إبراهيم

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية الدراسات
الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

العدد العشرون

للعام ١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م

الجزء الأول

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٦م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى جعل القرآن معجزة حبيبه سيد الأنبياء، وجعل بلاغته معجزة للفصحاء، وجعل دراسته وبيانه واجبين على العلماء، والصلاة والسلام على من تشرفت لغة الضاد بالجريان على لسانه، وسعدت بالرى من بيانه .

وبعد ...

ففى خلوة إجبارية كتبت على لم أجد مؤنسا لى سوى ربى، فهرعت إلى كتابه قراءة وصلاة به، وتتابعت ختماتى للقرآن وبالغت فى التركيز فى المتشابه حتى لا أتوقف فى صلاتى، فراعنى ما وجدت من بلاغة وإعجاز واضحين لم ألتفت إليهما من قبل، وبدأت أجمع المتشابه وأقوم بدراسة الفوارق باحثا عن علة ذكرٍ هنا وحذفٍ هناك، وتقديمٍ هنا وتأخيرٍ هناك، ثم بحثت فى السياق سائلا لماذا خصت هذه بهذه السورة والأخرى بتلك ؟ ولماذا هذا فى المدنى وذاك فى المكى؟ إلى آخر هذا الباب الجميل من الدراسة البلاغية، ثم نحيت المتشابه فى قصص الأنبياء لعلمى بأبحاث كتبت فى هذا الباب خص فيها قصص كل نبى بدراسة منفردة، وبدأت بسورة البقرة، ودرست ما يتشابه منها مع غيره، وسألت الله أن يعين على بقية هذا البحث فى بقية السور تباعا حتى تتم الفائدة، وجعلت من سورة البقرة مثالا يفتح به باب نسأل الله أن يعين على إكماله، وكان منهجى فى هذا البحث أن أبدأ الفصل بذكر الآيات من سورة البقرة وما يشبهها من السور الأخرى مبينا الفوارق معللا لها ذاكرا لم خصت كل سورة بم خصت به، ولماذا أتى هذا فى سورة البقرة المتقدمة وأتى ذاك فى السورة الأخرى المتأخرة، فاهتممت غالبا بترتيب السور والتعليل له، وعولت كثيرًا على السياق والمقام، وكان للمكى والمدنى دور فى التعليل، واعتمدت فى ذلك كله على الله أولا ثم على علمائنا الذين كتبوا فى هذا الباب كالغرناطى والكرمانى والإسكافى وابن جماعة والرازى.

وإذا كان المتشابه عند أهل التفسير وأهل القرآن يحمل معنيين المعنى الأول هو ما يقابل المحكم كما فى أوائل سورة آل عمران، والمعنى الثانى هو الذى تتشابه فيه الآيات فى الموضوع وتختلف فى زيادة كلمة أو حذفها أو تقديم أو تأخير أو تعريف أو تنكير إلى آخر هذه الفروق الدقيقة، وهذا الذى أعنيه بالدراسة هنا، وقد استحب أشياخنا تسميته مشتبه النظم

للتفريق بينه وبين المتشابه بالمعنى الأول –كما فعل استاذنا الدكتور عبد العزيز خضر -حفظه الله- فى اطروحته للدكتوراه؛ ولذلك ولأن الموضوع كبير على مثلى أن يكتب فيه كان عنوان البحث من بلاغة القرآن فى مشتبه النظم.

وختامًا:

أسأل الله التوفيق والقبول، وأسألك أخى القارئ إن وجدت خيرا وصوابا أن تدعو لى، وإن وجدت غير ذلك ألا تدعنى من نصحك ومن بيان الصواب لى، واعلم أنى راجع إلى الصواب مستغفر من الخطأ شاكر لك على البيان والنصيحة، وهذا حقى عليك، بل هو حق العلم علىّ وعليك، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

وختاما:

وما أبرئ نفسى إننى بشر ∴ أسهو وأخطئ مالم يحمنى القدر .

❁ ❁ ❁

الفصل الأول

قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١-٥]

قال تعالى: ﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ١- ٣]

وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [لقمان: ١- ٣]

لقد افتتحت سورة البقرة وكذا النمل ولقمان بالحروف المقطعة، ثم بالحديث عن القرآن وعظمته وكونه هداية للمتقين فى سورة البقرة، وللمؤمنين فى النمل، وللمحسنين فى لقمان، ثم ذكرت أوصافهم العظيمة التى استحقوا بها أن يخَصُّوا بالذكر، ولكن هنا تبدوا أسئلة تحتاج إجابة منها:

لماذا كان الحديث عن الكتاب فى البقرة، وعن الآيات فى النمل ولقمان؟ ولماذا ذكر المتقون فى البقرة، والمؤمنون فى النمل، والمحسنون فى لقمان؟ ولماذا ذكرت الهداية فقط فى البقرة وأضيف إليها البشرى فى النمل، والرحمة فى لقمان؟ ولماذا زاد فى الأوصاف فى البقرة الإيمان بالغيب وبدأ به، ولم يذكره فى النمل ولقمان؟ ولماذا زيد ضمير التأكيد فى النمل ولقمان "وهم بالآخرة هم يوقنون" بينما فى البقرة "وبالآخرة هم يوقنون"؟ ولماذا وصفوا بست صفات فى البقرة بينما وصفوا بثلاث فى النمل ولقمان؟ ولماذا اتفقت البقرة ولقمان فى نص الآية الخامسة من كل ولم ترد فى النمل؟ ولماذا خصت البقرة بذكر الإيمان بالكتب السابقة دون أختيها؟ ولماذا قدم المعمول على العامل فى الوصف الثالث والسادس من الأوصاف فى البقرة دون بقية الأوصاف؟ وهل هناك ملحظ بلاغى لكون البقرة مدنية والنمل مكية وكذا لقمان ؟ وهل ترتيب السور له مدلول فى التفريق بين التقوى والإيمان والإحسان ؟ وللإجابة على تلك الأسئلة أقول مستعينًا بالله تعالى:

أولًا : قال تعالى فى سورة البقرة ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ فبدأ بالحروف المقطعة[1]، ثم تحدث عن عظمة القرآن فقال ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾، وأشار إليه باسم الإشارة الذى يدل على البعد فى العظمة وبلوغ الدرجة القصوى فى الجمال والكمال، وعرف الكتاب ومن قبله اسم الإشارة معرفة، وهما مبتدأ وخبر وتعريف الطرفين يفيد التخصيص، وكأن المعنى هذا هو الكتاب حقيقة وما عداه كأنه ليس

(١) درست الحروف المقطعة فى بحث بعنوان فرائد مطالع سور القرآن، ط كلية اللغة العربية بالقاهرة.

كتابا فهو الكتاب الكامل فى العظمة والهداية والإعجاز[1]، ثم قال﴿ لَا رَيْبَ ﴾ وإن وقفت علىها كان المعنى هذا هو الكتاب حقيقة بلا أدنى درجة من درجات الشك والريب، فهو الكتاب الكامل بلا شك، وإن قلت ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ ﴾ بعد قوله ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ كان المعنى هذا هو الكتاب حقيقة، ثم تخبر أنه على كماله فى العظمة أو لكماله فى العظمة والإعجاز لا ريب فيه؛ فيكون الكتاب بدلًا من اسم الإشارة و﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ ﴾ خبره[2]، ومن الممكن أن تبدأ قائلا ﴿ فِيه ۛ هُدًى﴾ فيكون المعنى مشتمل على الهدى أى بداخله الهداية الكاملة للبشر أجمعين، وإن قلت ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ ﴾ ثم بدأت ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ كان المعنى هو الكتاب الكامل لا ريب فيه، ثم إنه تمحض هداية للمتقين فليس فيه هداية ولا مشتملا على الهداية إنما كله هداية من ألفه إلى يائه هداية؛ فكل حرف وكلمة منه مشتملة على الهداية، وكان هذا مناسبا لافتتاح سورة البقرة أول سورة فى القرآن بعد الفاتحة التى كانت بمثابة المقدمة الملخصة للقرآن، وذلك لأن المسلم لما قال فى الفاتحة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ودعا الله طالبا منه أن يهديه للطريق القويم الموصل لرضا الله أتته الإجابة فى البقرة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾أى من أراد سلوك طريق الهداية فعليه بهذا الكتاب، وهو وإن كان هداية مبثوثة لكل الخلق إلا أن المتقين خصوا بالذكر لأنهم هم الفائزون بمنافعه[3]، ولهذه المعانى السابقة كان الحديث عن الكتاب لرعاية الكلية والكمال فى البلاغ بخلاف سورتى النمل ولقمان فكان الحديث فيهما عن الآيات، أضف لذلك أن سورة البقرة مدنية وفى المدينة زادت التكاليف وتكاملت الشريعة، وتحول المسلمون من بناء القلب والنفس إلى بناء الدولة بالإنسان الذى بنى قلبه على الإيمان بالله وخلى من الشرك وأدرانه، أضف إلى ذلك أن الكتاب بكل مشتقات مادته (ك ت ب) ورد فى سورة البقرة أربعا وأربعين مرة منها أربع وعشرون مرة بمعنى الوحى النازل من السماء على الأنبياء سواء كان القرآن أو الكتب السماوية الأخرى

(١) الكشاف جـ١ ص٣٣، ط دار الكتاب العربى.
(٢) تفسير أبى السعود جـ١ ص٢٧، وتفسير الرازى جـ١ ص٣٧٨.
(٣) ينظر مسائل الرازى وأجوبتها من غرائب آى التنزيل ص٣، ط مصطفى الحلبى.

كالإنجيل والتوراة فهذا من التناسب، بينما الآية أو الآيات وردت فى السورة خمس عشرة مرة نصفها بمعنى الآية من القرآن والأخرى لمعانى أخر(١)؛ لذلك كان الحديث عن الكتاب فى سورة البقرة أما فى النمل فقد قال تعالى﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ فأشار إليه باسم الإشارة ليدل على البعد فى العظمة أيضا كالبقرة لكن كان التأنيث هنا لأن الحديث عن آيات الكتاب، وقد قلنا هناك فى البقرة روعيت الجملية وهنا رُوعيت الجزئية، وهذا يناسب مدنية البقرة ومكية النمل كما سبق، لكن كما كان الكتاب هو الأغلب ذكرا فى البقرة فهنا ذكرت الآيات فى ثنايا السورة عشر مرات(٢) فهذا من عظيم التناسب بينما ذكر القرآن أربع مرات والكتاب خمس مرات، ثم ذكر آيات موسى وهى معجزته هنا يناسبه ذكر الآيات، أما فى البقرة فمعجزة رسول الله ﷺ هى الكتاب والقرآن فسبحان من هذا كلامه، وأما فى لقمان فقد قال تعالى ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ لأن الآيات مبثوثة فى السورة فالحديث عن نعم الله وآلائه على خلقه مبثوثة فى السورة، وبنظرة سريعة للسورة تجد ذلك واضحا فيها فإن أضفت إلى ذلك أن الآيات ذكرت لفظا فى السورة خمس مرات(٣) فهذا من عظيم تناسب القرآن ، أضف لذلك مكية السورة كما عللنا فى النمل.

ثانيا : فى سورة البقرة بين أن القرآن هداية للمتقين، وفى النمل للمؤمنين، وفى لقمان للمحسنين، وبنظرة سريعة تجد كل سورة إلىق بما ذكر فيها، فمثلا سورة البقرة بنيت على التقوى؛ فقد ذكرت التقوى فيها بكل مشتقاتها خمسا وثلاثين مرة، بل ما من مقطع من مقاطع السورة إلا وذكرت فيه التقوى فقد تحدثت عن القرآن وكونه هداية للمتقين، وقسمت الناس حيال القرآن إلى متقين وذكرت أوصافهم فى ثلاث آيات، وكافرين وتحدثت عنهم فى آيتين، ومنافقين وتحدثت عنهم فى ثلاث

(١) وردت مادة ك ت ب فى سورة البقرة فى الآيات (٢، ٤٤، ٧٨، ٧٩، ٨١، ٨٩ ، ١٠١، ١٠٥، ١٠٩، ١١٣، ١٢١، ١٢٩، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٥١، ١٥٩، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٣، ٢١٣، ٢١٦، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٤٦، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٥،
وهناك آيات وردت فيها أكثر من مرة، وما كان تحته خط، فقد ورد بمعنى الكتاب السماوى الذى هو وحى من عند الله، والآيات وردت فى ٩٩، ١٠٦، ١٢٩، ١٥١، ١٦٤، ١٨٧، ٢١١، ٢١٩، ٢٣١، ٢٤٢، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٦٦.

(٢) ذكرت الآيات فى سورة النمل فى: ١، ١٢، ١٣، ٥٢، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤ ،٨٦، ٩٣، وذكر القرآن فى ١، ٦، ٧٦، ٩٢، وذكر الكتاب فى ١، ٢٨، ٢٩، ٤٠ ، ٧٥.

(٣) وردت الآيات فى سورة لقمان فى ٢ ، ٧ ، ٣١، ٣٢، ، وقد وردت فى ٣١ مرتين.

عشرة آية، ثم حثت كل الناس على عبادة الله وذكرت التقوى ، وخوفت الناس من النار وذكرت التقوى، وتحدثت إلى بنى إسرائيل وذكرت التقوى معهم ست مرات، وبينت المعنى الحقيقى للبّر وذكرت التقوى، وتحدثت عن القصاص وذكرت التقوى، وتحدثت عن الوصية وذكرت التقوى، وتحدثت عن الصيام وذكرت التقوى فى أوله وآخره، وأجابت عن سؤالهم عن الأهلة وذكرت التقوى، وتحدثت عن القتال وحرمته فى الأشهر الحرم وذكرت التقوى، وتحدثت عن الحج ذاكرة التقوى فى أوله وأوسطه وآخره، وبينت للمتزود لحجه أن خير الزاد التقوى، وتحدثت عن أهل الفساد فى الأرض وأنهم لا يقبلون قول اتق الله من أحد، وتحدثت عن تزيين الدنيا للكفرة وذكرت التقوى، وتحدثت عن أحكام الحيض وذكرت التقوى، وتحدثت عن حفظ اليمين بالله وذكرت التقوى، وتحدثت عن أحكام الطلاق وذكرت التقوى، وتحدثت عن الرضاع وذكرت التقوى، وتحدثت عن عدة المطلقة وحقوقها بعد الطلاق وذكرت التقوى، وتحدثت عن الربا وذكرت التقوى، وذكّرت بلقاء الله وذكرت التقوى، وتحدثت عن الدين وكتابته وذكرت التقوى، فما من مقطع من مقاطع السورة إلا وذكرت فيه التقوى، لذا كان من البلاغة أن يخص المتقون بالذكر لأن السورة مبنية على التقوى(١) ، أما سورة النمل فقد كان القرآن هدى للمؤمنين لأن خط الإيمان هو الأوضح فيها فكما بنيت البقرة على التقوى فكذلك سورة النمل حوار الإيمان هو السارى فيها؛ فقد ذكر الإيمان فيها ست مرات(٢) ، بل كل مقاطعها تتحدث عن الإيمان فبعد مقدمة عن القرآن الذى سيهتدى به المؤمنون وقصة موسى والآيات التى ستكون طريقا للإيمان، وقصة سليمان ودعوته للإيمان بالله، وقصة إيمان ملكة سبأ، ودعوة صالح قومه للإيمان، وقصة لوط ودعوة قومه للإيمان، واستنكار عداوتهم لأهل الإيمان، ثم حوار الإيمان المتتابع بعد عرض آلائه الداعية للإيمان به سبحانه فى قوله ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ وأخواتها بعدها فى(٣)حوار إيمانى عقلى مع الكفرة من أهل

(١) ذكرت التقوى فى الآيات: ٢، ٢١، ٢٤، ٤١، ٤٨، ٦٣، ٦٦، ١٠٣، ١٢٣، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢١٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٤١، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣ ، هذا خلافًا لابن جماعة الذى يرى أنه لما ذكر مجموع الإيمان ناسب المتقين ولما ذكر الرحمة فى لقمان ناسب المحسنين، ينظر كشف المعانى فى المتشابه من المثانى ص٨٨، ت د عبد الجواد خلف، سلسلة منشورات الجامعة الإسلامية بباكستان.
(٢) ذكر الإيمان فى النمل فى : ٢، ٤ ، ١٥، ٧٧، ٨١، ٨٦.
(٣) فى الآيات: ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤.

العناد، ثم الحديث إلى الكفرة ودعوتهم للإيمان، ثم بيان أن القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون فى دعوة صريحة للإيمان به، ثم دعوة للعمل الصالح للأمن من الفزع فى الآخرة ولن ينجو إلا أهل الإيمان، فهكذا السورة بنيت على الإيمان؛ فكان لابد أن يكون القرآن هداية للمؤمنين، وأما سورة لقمان فقطب السورة الأعظم الذى يعين على بيان مقصدها الرئيسى فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢] فالهدف الإقرار بنعم الله ثم الوصول للإيمان به شكرا على هذه النعم التى تقتضى منا الإحسان بعد الإيمان، فإحسانه إلينا مبثوث فى السورة ونحن مطالبون بالإحسان بأن نعبده كأننا نراه فإن لم نكن نراه فإنه يرانا، وأن نستسلم لله محسنين لخلقه طالبين عفوه مستمسكين بمنهجه سبحانه، وذلك الأمل الأعظم فى النجاة ولا نجاة بعيدا عن منهج الله ﷻ؛ لذا كان القرآن هداية للمحسنين فى سورة لقمان.

ثالثًا : فى سورة البقرة وصف القرآن بأنه هداية فقط، وذكرت نكرة للتعظيم، فهو هداية عظيمة، أو من نوعية خاصة[1] فهى هداية إلهية لن تتصلح البشرية إلا بها، وكانت الهداية فى أول البقرة إجابة على دعاء المسلم فى سورة الفاتحة **"اهدنا الصراط المستقيم"** أتت الإجابة فى البقرة أن الهداية المطلوبة والمرجوة هى ماثلة فى هذا الكتاب المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد، أما فى النمل فأضيف إلى الهداية البشرى فقال "هدى وبشرى للمؤمنين" لأن سورة النمل اشتملت - مِن وجهة نظرى - على بشرى عظيمة؛ وهى ماثلة فى قصة سيدنا لوط عليه السلام، وذلك فى قوله ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ وذلك أن الآية تخبر أن الباطل سيستطيل على الحق ويتهمه بتهم زائفة فإن لم يجد تهمة زائفة للحق اتهمه أنه حق، ثم تخبر أن الحق منصور لا محالة لأنها تخبر أن الباطل سيشهد على نفسه أنه باطل وسيشهد للحق بحق أنه حق، وذلك لأنهم يقولون أخرجوا الأطهار فإنا لا نجالس الأطهار ولا نعاشرهم، ومن يقول ذلك لابد أنه من الأنجاس، فهو يشهد على نفسه أنه ليس طاهرا، فهى بشرى أن الباطل مدحور زائل يحمل أدوات زواله فى ذاته، ثم فى نهاية القصة أخبر ربنا بعاقبة قوم لوط عليه السلام وهلاكهم فتلك بشرى

(١) ينظر الرازى جـ١ ص٣٨٤، ط مكتبة الإيمان.

أخرى بتدخل إلهى حاسم فى الوقت الحاسم لذا قلنا: إذا بلغ الظلم مداه، وتناسى الظالم الإله، وكانت الحرب على دين الله ولم يكن للمظلوم سوى الله، واجتمعت القلوب على شريعة الله ساعتها ينتقم الإله، وتلك بشرى عظيمة تستحق أن تذكر البشرى مع الهداية فى أول السورة، وأما فى لقمان فقد ذكر مع الهداية الرحمة؛ وذلك لأن رحمته سبحانه مبثوثة فى السورة فمن رحمته أن خلق السماء بغير عمد وجعل الجبال رواسى للأرض حتى لا تميد بنا، ومن رحمته إنزال الماء ليكون سر الحياة، ومن رحمته أن أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، ومن رحمته تسخير الكون وما فيه لنا كالشمس والقمر، ومن رحمته أن أجرى الفلك فى البحر وحفظنا من الغرق ونجانا برحمته إلى البر.

وفى البقرة المدنية زاد ﴿ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ ﴾ أى لا شك فيه؛ وذلك لأنها نزلت فى المدينة وفيها زاد المشككون من اليهود والنصارى، وفى سورة البقرة حديث عن جحودهم الحق بعد ظهوره لهم ومحاولتهم تشكيك من آمن من الأوس والخزرج فى إيمانه بعد ما كانوا يستفتحون عليهم به كما ذكرت السورة، أما فى النمل ولقمان فكلتاهما مكيتان لا وجود لهذا الصنف هناك فما احتاج نفى الريب عن القرآن.

رابعًا : فى سورة البقرة وصف المتقين بست صفات أولها ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ وهذا وصف خص بالبقرة ولم يرد فى أوصاف المؤمنين فى النمل ولا فى أوصاف المحسنين فى لقمان، وذلك قابله أنه فى لقمان والنمل زاد الضمير فى قوله ﴿ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ بينما فى البقرة ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ دون ذكر هذا الضمير، فجعل زيادة الإيمان بالغيب في البقرة فى مقابل زيادة ضمير التأكيد فى النمل ولقمان ، والموقن بالآخرة مؤمن بالغيب لأن الآخرة غيب.

خامسًا : فى سورة البقرة وصفوا بست صفات[1] بينما وصفوا بثلاث فى النمل ولقمان، فقد وصف المتقون بالإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله والإيمان بما أنزل على رسول الله ﷺ والإيمان بما أنزل من قبله واليقين بالآخرة، بينما وصف المؤمنون والمحسنون فى سورتى النمل ولقمان بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة واليقينبالآخرة، وذلك فى بيان واضح أن التكاليف والمطالب الشرعية زادت فى المدينة، وذلك لأن

(١) الكشاف جـ١ ص٣٧.

البقرة مدنية والنمل ولقمان مكيتان، فالتكاليف زادت، فمطلوب منهم بعد إصلاح أنفسهم إصلاح الناس والدعوة إلى الله قولا وعملا، وحجاج اليهود والنصارى وغيرهم ذبًا عن كتاب الله، والنبى ﷺ فى مكة كان يبنى الإنسان بعقيدة تزول الجبال الرواسى ولا تزول عقيدة المؤمن، وفى المدينة بدأ يبنى الدولة بالإنسان الذى بنى على الإيمان، ومعلوم أنه عند البناء يزيد الأعداء، فقد كان العدو فى مكة هم المشركون فقط، أما فى المدينة فزاد اليهود والنصارى والمنافقون والروم وفارس وبقايا الشرك فى الجزيرة العربية، والملاحظ أنه فى البقرة تحدث عن الإنفاق مما رزقهم الله، بينما تحدث فى النمل ولقمان عن إيتاء الزكاة وهذا فى البقرة أعم ليشمل الزكاة والصدقة، ففى المال حق سوى الزكاة ففى المدينة عند البناء وإعداد الجيوش سنحتاج لإنفاق فوق الزكاة كما حدث فى غزوة العسرة من سيدنا عثمان وأمثاله -رضوان الله عليهم أجمعين-.

سادسًا : فى سورة البقرة قال بعد ذكر أوصاف المتقين الستة **"أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون"** ، ونفس الآية تكررت فى لقمان بينما لم تذكر فى النمل وذلك لأن سورة لقمان بدأت بـ(الم)وكذا البقرة (الم) بينما النمل بدأت بـ(طس) ، وذكر الكتاب فى لقمان دون القرآن كالبقرة بينما ذكر القرآن فى النمل وبينا قبل علة ذلك فى النمل، وهذه الآية فيها إشارة للبعيد دلالة على العظمة، وكانت الإشارة للعظمة لبيان أن المشار إليهم حقيقون بالأوصاف السابق ذكرها ولم يقل هم المهتدون إنما قال "على هدى" فذكر (على) للاستعلاء والتمكن إشارة إلى أنهم متمكنون من الهداية ثابتون راسخون كمن يركب مركوبا وطيئا متمكنا منه يرى مالايراه غيره؛ فهم مخصوصون بهداية ربانية خاصة من ربهم، ونكر (هدى) ليفيد ضربًا مبهمًا لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره[1]، ثم أعاد اسم الإشارة ليعيد العظمة وليبين أنهم أهل الفلاح والنجاح والظفر بما أحبوا دنيا وأخرى.

سابعًا : وخصت سورة البقرة بذكر الإيمان بالكتب السماوية السابقة والإيمان بالأنبياء السابقين لأنها مدنية، وكان فى المدينة أهل كتاب فمن المفسرين من قال إنها حديث عن أهل الكتاب الذين ءامنوا بعيسى وموسى عليه السلام، ثم ءامنوا بك فهؤلاء هم المفلحون، ومنهم من يقول إنها حديث عن العرب فهم مطالبون بالإيمان بالأنبياء السابقين مثل الإيمان برسول الله ﷺ، ومنهم من يقول إن الآية الأولى

(١) الكشاف جـ١ ص٤٥.

عن العرب والثانية عن أهل الكتاب[1] يضاف لذلك أن هذه الآية تتناغم مع آخر السورة فى قوله تعالى ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥] ، ويلاحظ أيضا فى الآيات أنه قال تعالى "يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك" ولم يقل وبما أنزل من قبلك فلم تذكر الباء ليبين أن الكل من مشكاة واحدة فمن آمن بالتوراة والإنجيل وصَّله ذلك للإيمان بالقرآن فالكل كلام الرحمن.

ثامنًا : فى البقرة وصف المتقون بصفات ستة الثالث منها والسادس قدم المعمول على العامل فى قوله "**ومما رزقنهم ينفقون**" وقوله "**وبالآخرة هم يوقنون**" بينما بقية الأوصاف كان الترتيب على الأصل، وعلة ذلك -والله أعلم- أنه فى الأولى قال ومما رزقناهم ينفقون، ولم يقل ينفقون مما رزقناهم وبدأ بالمعمول قبل العامل ليبان أن ما تنفق منه هو ملك الله رزقك إياه فلا يحل لك أن تبخل به فقد بين القرآن منهج الإسلام فى التعامل مع المال فى جملتين من آيتين الأولى قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ ﴾ [النور: ٣٣] ، والثانية قوله تعالى ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ ﴾ [الحديد: ٧] ، فالأولى بينت أن المال مال الله فلا يحل لنا أن نصرفه فى غير ما أراد الله فقدم المعمول هنا لهذا المعنى، وفى الثانية قدم المعمول فى قوله بالآخرة تعريضًا بأهل الكتاب ولنفى الاهتمام بالدنيا فغاية مطلوبهم الآخرة[2]، والدنيا لا تكاد تعرض لهم عروضا فإن عرضت لهم جعلوها تحت أقدامهم وخلف ظهورهم.

تاسعًا أما الملحظ البلاغى المستنبط من كون البقرة مدنية وأن النمل مكية وكذا لقمان؛ فقد مر بك قبل أن مدنية البقرة كانت تعليلا لبعض الخصوصيات من مثل ذكر الإيمان بالكتب السابقة زيادة على ماذكر فى لقمان والنمل، وهذا يناسب المدينة لوجود أهل الكتاب فيها، ومر بك التعليل لكثرة الأوصاف فى البقرة دون لقمان والنمل ببيان أن التكاليف ستزيد فى المدينة عند بناء الدولة.

(١) ينظر مختصر تفسير ابن كثير جـ١ص٥٣ ط التوفيقية ت هانى الحاج تخريج الألبانى وتعليق ابن عثيمين رحمهم الله.
(٢) الكشاف جـ١ ص٤٥.

عاشرًا أما ترتيب السور وعلته وصلته بكون المتقين فى البقرة والمؤمنين فى النمل والمحسنين فى لقمان فإن فسرنا التقوى كما قال ابن عباس(١) باتقاء الشرك والعمل بطاعة الله والحذر من عقوبته يكون ذلك معللا للترتيب بين التقوى والإيمان والإحسان كالتالى: إن المسلم لما طلب الهداية من الله فى الفاتحة دل على هذا القرآن فى سورة البقرة الذى جعله الله هداية للمتقين الذين يتقون الله بترك الشرك والخوف من عقوبته مما يوصلهم ذلك للإيمان بالله كما فى سورة النمل، والإيمان بالله وصلهم للإحسان فى إيمانهم كما فى سورة لقمان التى وصف فيها القرآن بالحكمة وذكرت الحكمة مجردة وذكرت اسما من أسماء الله(٢) فلما كانت الحكمة مطلبا ومعلما رئيسيا من معالم السورة وصف القرآن بالحكمة دون البقرة والنمل فالله الحكيم أنزل القرآن الحكيم على نبى حكيم لأمة مأمورة بالحكمة فى دعوتها فيناله من قرآن حكيم لأنه تنزيل من حكيم عليم -والله أعلم-.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني

قال تعالى :﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة :٤٧، ٤٨]

وقال تعالى فى سورة البقرة أيضًا: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة:١٢٢، ١٢٣]، الآيات كلها من سورة البقرة وقد وردت جميعًا فى سياق

(١) ينظر مختصر تفسير ابن كثير جـ١ ص ٤٩ ط التوفيقية ت هانى الحاج تخريج الألبانى وتعليق ابن عثيمين رحمهم الله.
(٢) ينظر سورة لقمان الآيات: ٢، ٩، ١٢، ٢٧.

خطاب بنى إسرائيل، ولقد استغرق هذا السياق من السورة ثلاثًا وثمانين آية من الآية الأربعين إلى الآية الثالثة والعشرين بعد المائة الأولى من السورة وهى الآية الأخيرة معنا هنا، والملاحظ أن الآية الأولى فى كلٍ هى هى، والاختلاف فى الآية الثانية فلماذا قال فى الأولى **"ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل"** بينما قال فى الثانية **"ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة"**؟ ، ولماذا أتت هذه هنا وأتت تلك هناك؟ وما صلة كلٍ بسياقها؟ وللإجابة على هذه الأسئلة أقول مستعينًا بالله:

أولًا لابد من فهم معنى الآيات، وذلك أن الله ﷻ ينادى بنى إسرائيل ويأمرهم بتذكر نعمة الله عليهم بأن يشكروها حق شكرها ويذكرهم بأنه فضلهم على عالمى زمانهم، ثم يأمرهم بالخوف من الله والعمل ليوم لا ينفع فيه أحدٌ أحداً ولا تجزى فيه نفس عن نفس، والجزاء "الغناء والكفاية"[1]كما قال الراغب فى المفردات، والمعنى لا تغنى نفس عن نفس، وأتت نكرة للعموم أى أى نفس لن تغنى ولن تنفع أى نفس، أو الأولى للتعظيم، أى أى نفس مهما عظُمت لن تغنى ولن تشفع إلا بإذن الله، ونكَّر شيئًا مع إيغالها فى الإبهام للتقليل و التحقير أى لن يستطيع أحدٌ سوق أدنى درجة من درجات الخير لأحد من شفاعة ولا غيرها إلا بإذنه هو، والشفاعة من الشفع وهو ضم الشيء إلى غيره ومعناها الانضمام إلى آخر ناصرًا له سائلا عنه[2]، فلن يقبل من نفس مهما عظمت شفاعة لأخرى بل هذه النفس لن يقبل منها عدل، والعدل لفظ يقتضى معنى المساواة والمكافأة إن خيراً فخير وإن شرًا فشر[3]، ولا هم ينصرون أى لن تستطيع نفس أن تسوق خيرًا لنفس ولن تستطيع أن تدفع عنها شرًا، وفيه إخراج الخلق من القلوب والتعلق بعلام الغيوب، لكن الملاحظ أنه قال فى الأولى **"ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل"** وفى الثانية **"ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة"** والفارق بسيط سهل يفهم من السياق، إن الشفاعة تقتضى الشافع والمشفوع له والمشفوع عنده وأمر الشفاعة ، ففى الآية الأولى تتحدث الآية عن النفس الشافعة[4] فهى وإن علت مكانتها لن يقبل منها شفاعة لأحدولن يقبل منها عدل أى فدية؛ فهى لن تنفع غيرها بل لا تستطيع أن تنفع نفسها فلن تشفع لأحد ولن تدفع فدية عن أحد ولن تدفع عن نفسها؛ وذلك أن اليهود

(١) ينظر المفردات للراغب الأصفهانى ص٩٣ ط دار المعرفة.
(٢) ينظر المفردات للراغب الأصفهانى ص٢٦٣ ط دار المعرفة.
(٣) ينظر المفردات للراغب الأصفهانى ص٣٢٥ ط دار المعرفة.
(٤) ينظر كشف المعانى ص٩٥ لابن جماعة .

كانوا يزعمون أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فأويسوا[١]، أما فى الآية الثانية فتتحدث عن النفس المشفوع لها هذه النفس ضائعة لن يقبل منها عدل أى فدية تفتدى بها نفسها من عذاب الله ولن تنفعها شفاعة أحدٍ لها.

ثانيا واضح أن الحديث عن النفس الشافعة أتى فى بداية الحوار مع بنى إسرائيل أما الحديث عن النفس المشفوع لها فقد أتى فى آخر الحوار فلماذا أتى كلٌ فى محله؟ والإجابة سهلة إن شاء الله مع نظر دقيق إلى السياق، فعند النظر فى السياق نجد أن الحوار مع بنى إسرائيل بدأ بخطاب الخاصة وهم القادة من العلماء والأحبار، ففى أول آية من السياق يطلب منهم أن يذكروا نعم الله عليهم وأن يفوا له بالعهد وأن يؤمنوا بالقرآن الذى نزل مصدقًا لما معهم من التوراة والإنجيل، ثم يقول لهم ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فالخطاب لأهل التلبيس والتدليس مع علمهم بالحق وطمسهم له، وبعدها ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾والخطاب للعلماء والداعين للخير التاركين له وفيها ﴿ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهذا خطاب واضح لأهل العلم منهم فى هذا السياق أتت الآية التى تتحدث عن النفس الشافعة، وبعدها بقليل حديث عن الذين طلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله جهرة ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ وهؤلاء هم الصفوة من الذين اختارهم موسى عليه السلام نقباء عن أقوامهم كما تخبر سورة الأعراف فى قوله تعالى ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ ﴾ [الاعراف:١٥٥] وفى سياق الحديث عن الخاصة من العلماء والأحبار يناسبه الحديث عن النفس الشافعة لأنها النفس التى تُعلِّم الناس الخير وتعمل به فهى أولى بالاستقامة، وتلك النفس المستقيمة قد تشفع لغيرها لحُسن حالها مع الله، كما تجد العوام يطلبون الدعاء من الشيخ أو الداعية أو العالم ظنًا منهم أن دالَّ الناس على الخير ومعلِّم الناس الخير ينبغى أن يكون هو الأقرب لله فهو الذى ينتظر منه أن يشفع لغيره، لذلك أتى الحديث عن النفس الشافعة فى هذا السياق، أما الآية الثانية فإنها تتحدث عن عامة بنى

(١) الكشاف جـ١ ص١٣٦.

إسرائيل فى سياقها القريب فناسبها أن تتحدث عن النفس المشفوع لها وهم العامة الذين ينتظرون ذلك من الخاصة، وقيل (إنه لما ختمت الآية الماضية بحصر الخسارة فيهم ناسب تقديم نفى القبول فقال "ولا يقبل منها عدل" يبذل فى فكاكها من غير الأعمال الصالحة "ولا تنفعها شفاعة غير مأذون فيها" [1]

❁ ❁ ❁

(١) ينظر نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور جـ١ ص٢٣٧، والآية الماضية هى قوله تعالى "الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون" [البقرة ١٢١].

الفصل الثالث

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢].

وقال تعالى فى سورة المائدة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة: ٦٩].

وقال تعالى فى سورة الحج: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج:١٧].

الآيات الثلاث من سورة البقرة والمائدة والحج على الترتيب بدأت بالحديث عن المؤمنين ثم اليهود والنصارى ثم الصابئين، وأنهم جميعًا من ءامن منهم بالله واليوم الآخر فله أجره ولا خوف عليهم، وأضيف لهم فى الحج أن الله سيفصل بين كل هؤلاء يوم القيامة وهنا تبدوا أسئلة وجيهة منها لماذا اختلف ترتيب المذكورين فى السور الثلاث؟ ولماذا اختلف إعراب الصابئين فى المائدة عن إعرابها فى البقرة والحج؟ ولماذا زيد فى الحج المشركون والمجوس؟ وهل للسياق دخل فى اختصاص كل آية بسورتها؟ وما علة اختلاف خاتمة الحج عن خاتمة آية البقرة والمائدة؟ وللإجابة على ذلك أقول مستعينا بالله :

أولًا : للعلماء توجيه فى علة اختلاف الترتيب فى كل آية من الآيات بحسب المقصد فمثلا الإسكافى يرى أن الترتيب فى البقرة ترتيب بحسب أصحاب الكتب؛ فإن الذين ءامنوا مقصود بهم من آمنوا بالصحف التى نزلت على إبراهيم، ثم عُطف عليهم اليهود وهم أهل كتاب سابقون على النصارى الذين أتوا بعدهم، ثم أُخر الصابئون لأنهم لا

كتاب لهم أصلا فوجب تأخرهم ، وفى المائدة يرى أن الترتيب ترتيب أزمنة فإن من آمن مع الأنبياء متقدم كمن آمن مع آدم ونوح وإبراهيم ، ثم اليهود زمنهم بعد ذلك ثم الصابئون متقدمون على النصارى وإن كان التقديم فيهاعلى نية التأخير كما سيأتى بيانه ، وكذلك الحج ترتيبها ترتيب أزمنة كما بينت فى المائدة لكن ليس فيها تقديم على نية التأخير الكل أتى على أصله ، وكان حق المشركين أن يتقدموا لأنهم متقدمون زمنا فقد وجدوا قبل اليهود وقبل النصارى لكنه أخرهم لوجودهم فى عصر النبوة فهم أكثر من منى النبى بحربهم وصلى بجهادهم فهم موجودون آخرا فى زمن نزول القرآن فوجب لذلك تأخرهم، ومعلوم أن المجوس متأخرون عن اليهود والنصارى ولزم تأخيرهم لأن الترتيب زمنى[1]، وهناك من يرى أن الترتيب فى البقرة حسب الأشرف فالمؤمنون برسول الله ﷺ أو المؤمنون على الإطلاق أشرف من اليهود والنصارى ، ثم الصابئون وإن كانوا أسبق زمنا من النصارى إلا أن النصارى أشرف منهم وأكثر عددا وتابعا منهم[2]، والترتيب فى السورتين الأخيرتين ترتيب زمنى كما بينا قبل، بل من الممكن أن نجعل ترتيب المائدة على الأشرف أيضا إن راعينا أن فى الآية تقديما على نية التأخير؛ فإن راعينا المعنى يكون الترتيب روعى فيه الأشرف أيضا ويكون المعنى إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون كذلك، ويبقى ترتيب الحج هو الوحيد الزمنى كما بينا قبل ، ومن الممكن أن نضيف علة أخرى فى سورة البقرة وهى أن الترتيب روعى فيه التناسب مع أول السورة التى قسمت الناس حيال القرآن إلى متقين مؤمنين آمنوا برسول الله وعملوا بكتاب الله ثم ذكرت بعدهم **"والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك"** وعلى بعض التفاسير أنهم أهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى ثم بمحمد عليهم السلام أجمعين ، ثم تحدثت بعد ذلك عن الكفرة فكان الترتيب ذكر المؤمنين ثم أهل الكتاب يهود ونصارى ثم الكفرة والصابئون هم الأقرب للكفرة فيكون الترتيب متناسبا مع أول السورة -والله أعلم-.

ثانيا : ذكر العلماء علة اختلاف إعراب الصابئين فى المائدة عنه فى البقرة والحج بذكر علل كثيرة ذكر منها أبو حيان فى البحر المحيط أربعة أقربها رحما للبلاغة هو أن الواو استئنافية والكلام فيه تقديم

(١) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافى ص١٠.
(٢) البرهان فى توجيه متشابه القرآن للكرمانى ص٧٥، ط دار الفضيلة.

وتأخير وتقدير[١]، وعلى هذا فالصابئون مبتدأ والنصارى حقه التقديم على (الصابئون)، والخبر المذكور لـ(إن) يقدر للمبتدأ خبر مثله، والمعنى إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون كذلك، لكن يبقى سؤال لماذا خص الصابئون بالاستئناف عندهم وبداية كلام جديد ولماذا خصت المائدة بذلك الاستئناف؟ وللإجابة لابد من النظر فى السياق ومحاولة فهم المعنى؛ فالآية وردت فى سياق الحديث عن النصارى وإليهم، وذكرت كفرهم لما ادعوا أن الله هو المسيح، وذكرت كفرهم لما ادعوا أن الله ثالث ثلاثة ، والآية تتحدث عن أن الفضائل المذكورة فى الآية إن آمنت بالله واليوم الآخر وعملت صالحا فلا خوف عليهم من العذاب ، ولما كان من الممكن أن يستبعد النصارى الذين تحولوا إلى الكفر بادعاء أن المسيح إله أو أن الله ثالث ثلاثة أتت بالصابئين وهم أقرب إلى الكفر منهم أو كفرهم واضح وليس لهم كتاب كالنصارى وبدأت بهم وخصتهم بالرفع ليكون لهم خبر خاص بهم أفردوابه من بين المجموع؛ ليكون صلاح هؤلاء وسلامة معتقدهم ونجاتهم مدخلا للنصارى من باب أولى إن آمنوا بالله بلا تحريف وخلل فى العقيدة ونبذوا وطرحوا المعتقدات الباطلة التى أبطلها القرآن فى هذه السورة.

ثالثًا : أما لماذا زيد فى الحج المجوس والذين أشركوا فلأن السورة بدأت بنداء عام لكل الناس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [الحج: ١] ، وأكثر خطابها وحديثها إلى المشركين وعن المشركين وسياق الآية القريب حديث عن المشركين ودعوتهم إلى التوحيد، وأنهم إن أعرضوا فإن الكون كله وما فيه ومن فيه يسجد لله ، فلذلك لأن سياقها وموضوعها الرئيسى حديث عن المشركين وإليهم ذكر المجوس وهم عبدة النار، وذكر المشركون وهم موجودون فى مكة والجزيرة العربية بالإضافة إلى أن الآية تتحدث عن الفصل بين المختلفين فالكل يهود ونصارى ومجوس ومشركون ومن قبل كل هؤلاء المؤمنون سيجتمعون بين يدى الله ويفصل بينهم ويعطى كل ذى حق حقه ويجازى كلا بما يستحق فكان لابد من ذكر الكل.

رابعًا : أما السياق فله دخل كبير فى فهم المعنى والإجابة على جل هذه الأسئلة إن لم يكن كلها فسورة البقرة مثلا كان الحديث فيها عن أهل الكتاب يمثل أكبر مقطع من مقاطعها الرئيسية فقد شمل من الآية

(١) البحر المحيط جـ٤ ص٣٢٥، ط دار الفكر.

الأربعين إلى الآية الثالثة والعشرين بعد المائة الأولى أى ما يزيد عن ثمانين آية، وفى هذا السياق أتت آيتنا فكان لزاما أن يتقدم اليهود والنصارى على الصابئين ، أضف إلى ذلك أن الآيات لما ذكرت تحذير القرآن لهم ألا يكونوا أول كافر بما نزل إليهم مصدقا لما معهم ، وذكرت أنهم يأمرون بالبر ولا يفعلونه، وذكرت فى الآية التى قبل آيتنا مباشرة أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، وذكرت بعد ذلك تحريفم للكتاب إلى آخر فظائعهم، وكان من الممكن أن تستبعد توبة هؤلاء وقبولها بَّين القرآن أنهم وغيرهم إن آمنوا وعملوا صالحا واستقاموا على الجادة بالخوف من الله والعمل للقائه فلهم أجرهم وينتظرهم عند الله خير كثير -والله أعلم-.

وشبيه بهذا فى سورة المائدة لكن التركيز كان مع النصارى وكفرهم بالله وتأليههم لعيسى عليه السلام، فكان الباب مفتوحا للكل إن تابوا وصلحت عقائدهم وعملوا للقاء الله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وكذلك الحج لما كان سياقها الأغلب الحديث عن المشركين وإليهم فذكر فيه خصوصا المجوس والذين أشركوا دون ذكر ذلك فى البقرة والمائدة وخصت ببيان أن الكون وما فيه ومن فيه ساجد لله وإن جحدتم وأشركتم وتناسيتم لقاء الله وأشركتم فى عبادته غيره فإن الكون ساجد لله كل يعلم صلاته وتسبيحه فى عبودية عظيمة لله سبحانه.

خامسًا : أما لماذا خصت الحج بهذه الخاتمة دون البقرة والمائدة فلأن المطلوب مختلف من الآيات فالبقرة والمائدة تتحدثان عمن آمن من هذه الفصائل واتبع الحق الكل ينتظره الخير ويفتح لهم باب التوبة كما يدل السياق وخاتمة الآيتين فى البقرة والمائدة، أما الحج فإنها لا تتحدث عمن اتبع الحق وإنما حديثها وسياقها عن المشركين؛ وهذا علة قران النصارى بالمجوس والذين أشركوا لأن النصارى مشركون كما قال ابن جماعة(١)، ثم تذكر أن هناك اختلافا بين أهل الإيمان وهذه الفصائل فالكل يدعى أن الحق معه وهم مختلفون وتخبر الآية أن الله سيفصل بينهم يوم القيامة فيجازى أهل الإيمان بما يستحقون من الإكرام وأهل الكفر بما يستحقون من العقوبة، ومن جميل بلاغة القرآن ذكر الخصومة بعد ذلك فى قوله تعالى ﴿ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴾ [الحج: ١٩] ، ليناسب الخصومة التى فى الآية بين أهل الإيمان والفصائل الأخرى

(١)ينظر كشف المعانى لابن جماعة ص١٠١.

التى بقيت على معتقداتها الفاسدة ولم تؤمن فالكل سيجازيه الله بما يستحق، وهذا علة اختيار الترتيب الزمنى فى سورة الحج واختيار الترتيب بالكتب أو ذكر الأشرف فى البقرة والمائدة كما سبق فالحديث عن الفصل بين المختلفين لا يقتضى ذكر الأشرف بل الترتيب الزمنى هو الألىق -والله أعلم-.

سبق فى تعريف الإسكافى للصابئين بأنهم كانوا قبل النصارى وهذا رأى لكن للأمانة الصابئون ذكر ابن كثير وأغلب المفسرين الخلاف فيهم فمجاهد يرى أنهم قوم بين اليهود والنصارى والمجوس ولا دين لهم، وأبو العالية يرى أنهم فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور، والحسن يرى أنهم كالمجوس، ومعاوية بن عبد الكريم يرى أنهم يعبدون الملائكة، ووهب بن منبه يرى أنهم يعرفون الله ولا شريعة لهم، والخليل يرى أنهم يشبهون النصارى ويختلفون معهم فى القبلة، والقرطبى نقل أن دينهم بين المجوس واليهود، واختار الرازى أنهم يعبدون الكواكب وهم الذين كانوا فى زمن سيدنا إبراهيم، ثم ختم ابن كثير قائلا والأظهر أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا دين مقرر لهم يتبعونه، ولذا كان المشركون ينبذون من أسلم بالصابئ أى خرج عن سائر أديان الأرض[1]، بينما يرى الأصفهانى أنهم على دين نوح، وقيل لكل خارج من الدين إلى دين آخر صابئ من صبأ ناب البعير إذا طلع.

❁ ❁ ❁

(١) ينظر مختصر تفسير ابن كثير جـ١ ص١١٠ كما ينظر المفردات للأصفهانى ص٢٧٤.

الفصل الرابع

قال تعالى فى سورة البقرة﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة:٨٢] وقال تعالى فى سورة البقرة أيضا﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٧] وقال تعالى فى سورة آل عمران﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران:٥٧] وقال تعالى فى سورة النساء ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلٗا ﴾ [النساء:٥٧] وقال تعالى فى سورة النور ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] لقد قرنت الآيات السابقة بين الإيمان والعمل الصالح وذلك ماثل فى القرآن فى ثنتين وخمسين آية كلها وردت دون الفصل بين الإيمان والعمل إلا فى آية وحيدة هى آية سورة النور التى فصلت بين ءامنوا وعملوا بقوله تعالى (منكم) فقالت: **"آمنوا منكم وعملوا الصالحات"**، فما علة تلك الخصوصية لهذه الآية من هذه السورة؟ وللإجابة على هذا السؤال أقول مستعينا بالله لابد من النظر إلى السياق الخاص بهذه الآية التى انفردت عن عشرات الآيات بالفصل بين الإيمان والعمل الصالح بـ(منكم)، فالآية من سورة النور المدنية تتحدث عن التمكين للمؤمنين فهى معروفة بآية التمكين لأهل الإيمان الخالص والعمل الصالح المتتابع، وسورة النور قطبها

الأعظم ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وسمیت سورة النور بذلك مع أن السورة كلها ظلام تحذر منه فبدأت بدایة خاصة سورة أنزلناها وفرضناها وقد عللت لهذه البدایة فی بحث آخر(١)، ثم بعدها حدیث عن الزنا، ثم حد الزانی غیر المحصن، ثم حدیث عن نكاح الزوانی، ثم حدیث عن حد القذف، ثم حدیث عن اللعان، ثم حدیث عن فریة الإفك، وكل ذلك ظلام تحذر منه لیحیا الناس فی نور، فهی أتت بشرائع من شأنها حرب الظلام وإحیاء الناس فی النور، وكل مقاطعها تدخل تحت هذا المعنی لتخدم المقصد الرئیسی للسورة، وآیتنا وردت بأعظم وعد لأهل الإیمان وهو الاستخلاف فی الأرض مثل استخلاف من سبقهم والتمكین للدین بهم وتحویل الخوف إلی أمن وأمان كل ذلك لیعبدوه ولا یشركوا به شیئا، ویلاحظ أن الآیة جعلت الاستخلاف مقدمة للتمكین، فالتمكین مرحلة أعلی والاستخلاف مرحلة أسبق تمهیدا لتمكین كامل، والملاحظ أنها جعلت التمكین للدین فلم یكن التعبیر ولیمكن لهم فی الأرض إنما قالت **"ولیمكنن لهم دینهم"** أی أن التمكین للدین ولیس للأفراد ولا للجماعات إنما یمكن الله للدین بهؤلاء فمن عمل لدین الله مكن الله للدین به ومن عمل لنفسه أو شهرة أو هوی ضاع وضیع، فلیبحث المسلم المؤمن عن جندیته لله فإن كان جندا لله مكن الله للدین به، ثم إنها قالت **"الذی ارتضی لهم"** أی الدین الحق الذی یرضاه هو، لا دین التخاذل والركوع للعدو والركون لدنیا زائلة، ولا دین أهل الزیغ والضلال الذین یبیعون آخرتهم بدنیا غیرهم فتفسد الدنیا بهم، ثم ذكرت علة تلك العطاءات وهی العبادة لله وحده لهذا كله أتت "منكم" فی هذه الآیة دون غیرها فی إشارة واضحة لأمرین:

<u>الأول</u> أن التمكین لیس للكل فالتمكین له شروطه والثلة التی ستتوافر فیها الشروط ویمكن للدین بها ثلة قلیلة لكنها قائدة عاملة مؤثرة موجهة لغیرها لذلك عبر بـ(من) التبعیضیة فی إشارة واضحة إلی هذا المعنی، وإن كان الشهاب یری أنها تحتمل أن تكون بیانیة أو تبعیضیة وعلی الثانی یكون المقصود المهاجرین لأنهم الخلفاء(٢)، بیما یری البقاعی أنها تبعیضیة لتكون ظاهرة فی إخراج المنافقین إشارة إلی أنهم لا یزالون فی ذلة وضعة ولا تمكین ولا عزة لهم(٣).

(١) ینظر بحث بعنوان فرائد مطالع سور القرآن، ط كلیة اللغة العربیة بالقاهرة مجلة القطاع سنة ٢٠١٣.
(٢) حاشیة الشهاب جـ٧ ص٨٢، ط دار الكتب العلمیة بیروت.
(٣) ینظر نظم الدرر جـ٥ ص٢٧٩، ط دار الكتب العلمیة.

الثانى أن الخطاب للصحابة فى وقت عصيب فيه بشرى عظيمة لهم بقوله (منكم) وهى أن التمكين هذا لن يحدث بعدكم فى الأجيال القادمة إنما أنتم سترونه بأعينكم وستكونون من جند الله الذين سيرفعون راية التوحيد ويخرجون العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وفعلا فى أقل من عشر سنين من زمن نزول هذه الآية فتح المسلمون المشرق والمغرب وملكوا فارس والروم، ويلاحظ أنه قال **"ليستخلفنهم فى الأرض"** دون إضافة مع ذكر (ال) فتحتمل العهد ولا أرض مسبوقة ليكون الحديث للعهد الذكرى، وقد تكون للعهد الذهنى والمقصود بها أرض معينة وهى المدينة أو مكة التى كانوا مستضعفين فيها سيملكونها وسيدخلونها فاتحين أعزاء على الخلق أذلاء لخالق الخلق، وقد تكون الأرض المقصود بها كل الأرض أى سيبلغ ملك هذه الأمة وسترفع رايات التوحيد على مشارق الأرض ومغاربها[1] فلن يبقى بيت وبر ولا شجر ولا مدر إلا سيدخله الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل وكل ما بلغه الليل والنهار سيبلغه الإسلام؛ فتكون تلك الآية من أعظم البشريات للصحابة ابتداء ولأمة التوحيد والإيمان الخالص والعمل الصالح من بعدهم انتهاء، فأهل هذه البشريات هم أفضل أهل الأرض أو هم ثلة قليلة فى كل زمان لكنها ثلة قائدة عاملة مؤثرة فى غيرها لذلك خصت الآية بـ(منكم) دون غيرها من الآيات -والله أعلم-.

❁ ❁ ❁

(١) ينظر صحيح مسلم حديث رقم ٢٨٨٩.

الفصل الخامس

قال تعالى فى سورة البقرة ﴿ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٩٤،٩٥] وقال تعالى فى سورة الجمعة ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة:٦،٧] الآيات من سورتى البقرة والجمعة تأمر النبى ﷺ أن يخاطب اليهود الذين ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه وأن لهم خصوصية عند الله تجعل نعيم الجنة فى انتظارهم بعد وفاتهم لا محالة، تأمره أن يقول لهم إن كان الأمر كذلك وكنتم صادقين فى دعواكم فتمنوا الموت لتستريحوا من الدنيا وعنائها إلى نعيم حتمى أبدى، لكن الآيات فى بيان هذا المعنى اختلفت بعض الاختلاف فمثلا فى البقرة خطاب لهم دون نداء، وفى الجمعة بعد (قل) أتى النداء **"يأيها الذين هادوا"**، وفى البقرة **"قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس"** بينما فى الجمعة قال **"إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس"**، فالجملتان مختلفتان مع زيادة الزعم فى الجمعة، وفى البقرة قال **"ولن يتمنوه أبدا"** بينما فى الجمعة **"ولا يتمنونه أبدا"** فما علة هذه الاختلافات؟ ولم خصت كل سورة بما جاء فيها؟ وللإجابة على هذه الأسئلة أقول مستعينا بالله :

أولًا : البقرة والجمعة كلتاهما مدنيتان وهما من أوائل ما نزل بالمدينة، ولكن الحديث عن بنى إسرائيل عموما وعن اليهود خصوصا جاء أصلا فى البقرة وعرضا فى الجمعة؛ ففى البقرة تكونت السورة من مقاطع رئيسية أكبر مقطع فيها المقطع الذى يتحدث عن بنى إسرائيل وإليهم، فقد استغرق من السورة أكثر من ثمانين آية، وسيقت آيتنا بين آيات تتحدث عن اليهود وإليهم وتخاطبهم فناسب هذا عدم ذكر النداء لأن سياق الكلام موصول فى الحديث إليهم قبل هذه الآية

وبعدها، بل وأدل شىء على ذلك هو اسم السورة (البقرة) وهى تتحدث عن قصة بنى إسرائيل فى ذبحها، أما فى الجمعة فقد أتت بعد سورة الصف التى أمرت المؤمنين أن يكونوا صفا واحدا فى مواجهة الأعداء فأتت بعدها سورة الجمعة ومقصدها (بيان مسمى الصف بدليل هو أوضح شرائع الإسلام وأوله شرطية الاجتماع فيها)[1]ولعل تخصيص (الجمعة) بالنداء لأن الحديث عنهم أتى عرضا بعد افتتاح السورة بالتسبيح وذكر أربعة من أسماء الله الحسنى، ثم الامتنان على الأميين ببعثة رسول الله ﷺ الذى أتى ليعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وبيان أنهم كانوا فى ضلال قبل هذه المنة فليأخذوا بالكتاب وليطبقوا كل مافيه ولا يكونوا كاليهود الذين أكرموا بالتوراة فلم يشكروا النعمة بالعمل بما فيها بل كانوا كالحمار يحمل كتب علم نافعة ويتعب فى حملها دون الانتفاع بها، فالحديث عن اليهود وتمثيلهم بالحمار أتى عرضا تذكيرا للمؤمنين بنعمة الكتاب والسنة ووجوب الأخذ بهما وعدم التشبه باليهود الذين حرفوا التوراة ولم يعملوا بها فأصبحوا كالحمار -مع الاعتذار للحمار-، نعم مع الاعتذار للحمار لأن الله ضرب لهم مثلا بالحمار وهم فى الحقيقة أسوأ من الحمار لم؟ لأن الله ضرب لهم مثلا بالحمار فى حمل الكتب النافعة وتحمل المشقة فى ذلك مع عدم الانتفاع، وهم كذلك لكن لو دققنا النظر لوجدنا أن الحمار وظيفته الحمل والتوصيل لأنه مسخر وليس مكلفا مثلهم فلا يلام على ذلك فقد فعل ما خلق من أجله، أما هم فمكلفون مطالبون بالعمل بما فى التوراة ولم يعملوا، إذن شبههم الله بالحمار -مع الاعتذار للحمار-، أيا ما كان اتضح أن الحديث عنهم أتى عرضا لتحذير المؤمنين من سلوك مسلكهم وعدم شكر نعمة الله علينا بالقرآن بالعمل به، ثم تطرقت الآيات إلى رد فرية ادعاها اليهود وهى أنهم أبناء الله وأحباؤه وأن الآخرة خالصة لهم وأنهم أولياء الله، فاختار أمرهم بطلب الموت استعجالا لطلب الخير الذى ينتظرهم فى الآخرة وخروجا من الدنيا بمشاكلها وآلامها وأحزانها؛ لذلك كله لزم البدء بالنداء لأن الخطاب أتى عرضا ولم يسبق لهم ذكر ولا نداء حتى يعطف عليه، ولعل ذكر النداء في سورة الجمعة دون البقرة ليناسب النداء لصلاة الجمعة فى قوله تعالى **"إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة"** وهذا من التناسب اللطيف.

ثانيا : بدأت السورتان بالجملة الشرطية المصدرة بـ(إن) واتفقتا فى جواب الشرط **"فتمنوا الموت إن كنتم صادقين"**، واختلفتا فى فعل

(١) ينظر نظم الدر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى جـ٧ ص٥٩٠، ط بيروت.

الشرط ففى البقرة ﴿ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ ﴾، والبدء بـ(إن) فى السورتين التى تفيد الشك لبيان بطلان دعواهم من البداية قبل إبطالها بالحجة والحوار العقلى الملزم، وأما اختلاف فعل الشرط فلأن السياق مختلف كما بينت سابقا؛ فالحوار فى البقرة ممتد معهم فقد سبقت الآية وأتبعت بذكر كثير من فظائعهم من قتل الأنبياء وتحريف لكتاب الله حربا للشرع ولحملة الشرع وحرمانا للخلق من هدى الخالق، وذكرت عبادتهم للعجل، وكفرهم بالكتاب وبالنبى الذى كانوا يستفتحون به على الذين كفروا، وقولهم﴿ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ ﴾ [البقرة:١١١]، وقولهم﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ ﴾ [البقرة:٨٠]، وقولهم﴿ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ ﴾ [البقرة:١٣٥]، وذكرت أنهم ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾[البقرة: ٨٦]، ولأنهم قالوا فى سورة المائدة﴿ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨]، لأن السورة ملئة بفظائعهم وافتراءاتهم وادعاءاتهم الكاذبة ودعاويهم الباطلة ومنها هذه الدعوى من خصوصيتهم عند الله؛ لذا عبر عن دعواهم فى سورة البقرة بما هو أكثر مبالغة[1] وأدل على كبرهم وعنادهم وتدليسهم على الخلق فقال "**إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس**" وهى بلا شك أكثر مبالغة فى دعواهم من جملة الشرط فى الجمعة فهنا قدم (لكم) للتخصيص أى أنتم مخصوصون بذلك من بين البشر، ثم "**الدار الآخرة**" كلها بعموم ما فيها، ثم "**عند الله**" وما فيها من تشريف، ثم "**خالصة من دون الناس**" أى لا يشرككم فى خيرها أحد فأنتم أهل الخصوصية، ثم التعبير بالناس وما فيه من عموم يشمل كل من عداهم، وهذا يوافق زعمهم فى قولهم "**لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أونصارى**" ومعناه قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا؛ لهذا كله أتى الشرط فى البقرة أكثر مبالغة من الشرط فى الجمعة، ولانعدام هذا السياق فى الجمعة ولأن السياق مختلف هناك قد أتى الحديث عنهم عرضا فى سورة الجمعة عند الحديث عن هذا اليوم العظيم الذى مَّن الله به على أمة الإسلام، وكانوا

(١) كشف المعانى لابن جماعة ص١٠٣، وأضاف أنه تقدم منهم الكفر والعصيان فى البقرة فناسب حرف المبالغة فى النفى لتمنيهم الموت لما يعلمون ما لهم بعده من العذاب.

أصلا قد كذبوا ودلسوا على المسلمين وافتخروا عليهم بجعل يوم السبت لهم دون المسلمين ادعاء أن يوم السبت هو الأشرف، والأمر على نقيض ذلك إذ الجمعة أشرف وقد عرضه الله عليهم فرفضوه هم والنصارى ومَّن علينا به، وقد دلت الأحاديث على ذلك، منها ما رواه البخارى أن الحبيب النبى ﷺ قال: (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبع: واليهود غدا، والنصارى بعد غد)[1]، ولعل هذا الحديث يبين المقصد الرئيسى من السورة وكيف أتى الحديث عنهم عرضا وتبعا لهذا المقصد، واضح أن سياق الجمعة مختلف لذلك جملة الشرط اختلفت فهى أقل مبالغة وبدأت بفعل الزعم فى إشارة واضحة إلى التدليس على المسلمين فى أفضلية يوم السبت على يوم الجمعة وبيان الرد عليهم كما فى الحديث السابق فى البخارى، وانظر إلى (إن) وقوله (زعمتم) وعدم وجود التقديم الذى يفيد التخصيص كما فى البقرة فى تقديم (لكم) هناك، وذكر زعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس، ولم يذكر أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس كالبقرة فهذا أقل مبالغة مما فى البقرة كما ترى، وقد عبر بـ(إن) التى تفيد الشك وجعل فعلها (زعمتم) مع أن زعمهم واقع وليس مشكوكا فيه ولكنه لأن زعمهم مكذوب فالشك متوجه إلى ما زعموه لا إلى فعل الزعم نفسه، لأن الزعم وقع منهم لكن مفعول الزعم أو معموله هو المكذوب.

ثالثًا : إذا كان الاختلاف بين فعلى الشرط فإن الاتفاق حدث بين الجوابين فقال فى السورتين **"فتمنوا الموت إن كنتم صادقين"** وهو معنى قصد به التحدى لإبطال حجتهم ودعواهم المذكوره فى جملة فعل الشرط، وقد حمله ابن كثير -رحمه الله- على المباهلة، والمعنى ادعوا بالموت على أكذب الفريقين واستدل له واحتشد له، ورفض القول الآخر مدعيا أنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمنى الموت، وكم من صالح لا يتمنى الموت، ثم إنهم قد يحتجون علينا أننا نؤمن أننا أصحاب الجنة ونحن لا نتمنى الموت فى حال الصحة فكيف نلزمهم بما لا يلزمنا؟ لهذا كله حمل الآية على المباهلة، والأمر ليس كما قال -رحمه الله- لأننا وإن كنا نعتقد أننا على الحق وأننا من أهل الجنة -إن شاء الله- إلا أننا نؤمن أننا إن أطعنا الله واستمسكنا بمنهجه وتقربنا إليه بالعمل الصالح الخالص لوجهه وقبل منا هذا العمل نرجوا أن نكون من أهل الجنة، ونؤمن أن من

(١) ينظر صحيح البخارى ص٣٦٢ ط الرسالة، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، برقم ٨٧٦ من حديث أبى هريرة.

غلبت سيئاته حسناته أو من لم يتقبل الله طاعاته ولم تغفر سيئاته سيكون من أهل النار لكنه إن مات على التوحيد سيعذب جزاء آثامه وسيئاته ثم يكون مآله إلى الجنة -إن شاء الله- أما هم فلا يدعون هذا إنما يدعون دخول الجنة مطلقا بلا قيد أو شرط، ثم إنهم يدعون الخصوصية وأنهم أبناء الله وأحباؤه وهذا فارق كبير بينهم يجعل من الآية تحديا وليس مباهلة لأن ما ظنه العلامة ابن كثير[١] باب إشغاب علينا في الجدال ليس كما ظن؛ فإن الآيات تبطل دعواهم الخصوصية وأن الآخرة خالصة لهم حتما ويقينا ونحن لسنا كذلك، بل بين خوف ورجاء، ونسأل الله أن يجعلنا من أهل الجنة.

أيا ما كان فإن الجواب قد اتفق في قوله **"فتمنوا الموت إن كنتم صادقين"** ويلاحظ أنه عبر بـ(إن) أيضا كما سبق، لكنه في البقرة رد دعواهم بقوله **"ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم"** بينما قال في الجمعة **"ولا يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم"** فما سر الخلاف؟ ولم خصت البقرة بـ(لن) والجمعة بـ(لا)؟ والإجابة سهلة مما سبق بيانه من الاختلاف في السياق والاختلاف في فعل الشرط كما بينا سابقا؛ فلما ذكرت السورة قولهم **"لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى"** وقولهم **"لن تمسنا النار إلا أياما معدودة"**، وكان في فعل الشرط أعلى درجات المبالغة الدالة على أعلى درجات الكبر من ادعائهم أن الدار الآخرة بأكملها خالصة لهم من دون الناس كان لابد من استخدام حرف نفي يكون أقطع وأدل على تأكيد النفي من غيره، وهذا ماثل في (لن) التي دلت على القطع والثبات لهذا النفي، فناسب هذا خصوصية الشرط، أو لما بالغوا في كل ما ادعوه وأتوا بالغاية في ادعاء التفرد يوم القيامة رد عليهم بحرف فيه مبالغة في النفي أكثر من غيره[٢]، أما في سورة الجمعة فلأن السياق سيق لهذا المعنى عرضا ومثّل الحديث إليهم ثلاث آيات من سورة تتكون من إحدى عشرة آية، ولم يكن فعل الشرط عندهم بهذه المبالغة المذكورة في البقرة ناسب أن يأتي بـ(لا)، ثم بعد ذلك يخبر بالعلة التي هي خاتمة الحجاج **"ولن يتمنوه أبدًا بما قدمت أيديهم"** فالباء في السورتين للسببية، والتعبير في قوله **"بما قدمت"** فيه بلاغة عظيمة فكأن أعمالهم ستسبقهم وأنهم قدموا من الأعمال السيئة والأفعال الشنيعة ما يجعلهم على نقيض ما يدعون، وفيه تصوير للمعقول في صورة المحسوس ليظهر أتم ظهور، ويشبه ذلك بالأيدي على سبيل المجاز العقلي لأن

(١) ينظر مختصر تفسير ابن كثير ص١٣٣ وما بعدها.
(٢) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي ص١١ وص١٢.

الأعمال تكون باليد وغيرها ومن أسوأ جوارحهم وأكثرها إشغابا على الحق وتدلىسا على الخلق اللسان، لكنه خص الأىدى بالذكر هنا على سبىل المجاز العقلى لبىان أن أفظع أعمالهم كانت باليد ولأن السورة سجلت علىهم تحرىفهم للكتاب بأىدىهم، وقتلهم الأنبىاء بأىدىهم فأكثر الفظائع ترتكب باليد، واليهود أهل حسىة مفرطة لذا ذكر اليد، ولم ىقل الله علىم بهم وقال علىم بالظالمىن فوضع المظهر موضع المضمر لىسجل الظلم علىهم، وفىه تهدىد ووعىد مع أنه أتى فى صورة الخبر، والآىات فىها تحد واضح للىهود، وفىها من دلائل النبوة وإعجاز كتاب الله ما فىها، فالتمنى بالقلب فقد كان من الممكن أن ىعلنوا تمنى الموت باللسان من باب الإشغاب على القرآن ولكن الله صرفهم عن هذا لعلمهم أنهم إن فعلوا أخذهم الله كما نقل ابن كثىر أنهم لو تمنوا الموت لرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذىن ىباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا ىجدون أهلا ولا مالا[1]، لذلك قال بعده ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [البقرة:٩٦]، بمؤكدات كثىرة أنهم أشد الناس حرصا على الحىاة أى حىاة ولو كانت حىاة ذلىلة -وهذا علة تنكىر(حىاة)- بل هم أحرص على الحىاة من المشركىن لأنهم أهل علم بما ىنتظرهم من عقوبات فى الآخرة، لاحظ المؤكدات وأفعل التفضىل وتنكىر (حىاة) كل ذلك ىناسب سىاق البقرة من المبالغة التى ادعوها فرد علىها بمبالغة فى تأكىد نفى ما ادعوه وبىان نقىضه، وكذلك

فى الجمعة الأسلوب أهدأ فى قوله ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة:٨]، ىلاحظ المؤكدات أقل والحرص على الحىاة لىس موجودا هنا وأفعل التفضىل كذلك كل ذلك ىناسب سىاق الجمعة -والله أعلم-.

❁ ❁ ❁

(١) ىنظر مختصر تفسىر ابن كثىر جـ١ ص١٣٣ ط المكتبة التوفىقىة، هذا وقد نقل ابن كثىر عن ابن عباس بأسانىد صحىحة أنهم لو تمنوا الموت لماتوا جمىعا.

الفصل السادس

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة:١١٠] ، وقال تعالى فى سورة المزمل ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المزمل:٢٠]، الآيتان من سورة البقرة وسورة المزمل تأمران بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتقديم الخير، ويُنتظرون أجر ذلك من الله ﷻ، لكنها فى المزمل بعدما أمرت بالزكاة زادت **"وأقرضوا الله قرضا حسنا"**، وبعد قوله **"وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله"** فى السورتين زادت فى المزمل "هو خيرا وأعظم أجرا" ثم ختمت فى البقرة بقوله **"إن الله بما تعملون بصير"**، بينما ختمت فى المزمل بقوله **"واستغفروا الله إن الله غفور رحيم"** فما علة ذلك؟

و للإجابة على ذلك أقول مستعينا بالله :

أولًا : بالرجوع إلى سياق الآيتين فى السورتين نجد أن سورة البقرة وردت الآية فى سياق الحديث عن أهل الكتاب، وهو أكبر مقطع من مقاطع السورة كما بينت سابقا، وبعد ما ذكرت الآيات فى سياقها القريب كراهية أهل الكتاب لنا نحن أهل الإيمان وبينت أنهم لا يودون أن ينزل علينا خير من ربنا وأنهم يتمنون لو رددنا إلى الكفر، ثم بعد ذلك تأمرنا الآية بالعفو والصلح فى هذه المرحلة، واقرأ إن شئت قوله تعالى ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[البقرة: ١٠٥] واقرأ بعده ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُواْ

وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[البقرة: ١٠٩] بعدها آيتنا **"وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة"**، ففى هذا السياق الملئ بعدواة أهل الكتاب لنا وتمنيهم الشر لنا وبغضهم الخير لنا وحسدهم لنا ولنبينا الذى أنزل الله عليه كتابا مصدقا لما معهم ومهيمنا عليه بعدما كانوا يستفتحون به على الذين كفروا، فى هذا السياق يؤمر المؤمنون بالصفح والعفو فى هذه المرحلة حتى يأتى الله بأمر من عنده سيأتى بعد فى سورة التوبة وغيرها الأمر بالجهاد، ولكن فى هذا التوقيت تقابل العداوة بالصفح فهذا هو الأنسب لهذا الظرف، ثم الأمر بالانشغال بالطاعة فلا يشغلنكم بغضهم وحربهم لكم عن طاعة ربكم، وهنا تقل المأمورات عن سورة المزمل لأنها سبقت بالصفح عن عداوة عدو بغيض، وانتظار أمر الله وكان الأمر بالانشغال بالطاعة فلا يشغلنكم عداوتهم عن العبادة وذكر الصلاة لشرفها ولأنها صلة بالله، وكأن المعنى إن أبغضوكم ودابروكم وحاسدوكم فاهرعوا إلى ربكم وقفوا بين يديه محبين له متلذذين بلقائه فتنسيكم لذة الوقوف بين يديه ضغن الضاغن وعداوة العدو، ثم عليكم بإخوانكم الفقراء أدوا إليهم الزكاة رفعا للفقر والحاجة عنهم وتلاحما وترابطا معهم لتكونوا لحمة واحدة أمام عدو لا يرقب فيكم إلًا ولا ذمة، ثم يعلمهم أن كل خير تقدمونه ستجدونه فى الآخرة عند الله، فجدوا فى باب الإنفاق وفى كل أبواب الخيرات فكل شئ تفعلونه ستلقون جزاءه فى الآخرة إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ولأن السياق سياق تحذير من أهل الكتاب وعداوتهم والانشغال عن ذلك بطاعة الله اقتصر على هذا، أما فى سورة المزمل فهى من أوئل ما نزل من القرآن فى مكة فكما أن البقرة أول ما نزل بالمدينة فإن المزمل من أوائل ما نزل بمكة، وسورة المزمل اختصت بالتربية الإيمانية والقلبية لرسول الله ﷺ ولصحابته من بعده فأمرته بقيام الليل إلا قليلا، ثم خففت رويدًا رويدًا وأعلمته أن شرفه فى قيام الليل وأنه الأقرب لحضور القلب ولتجهيز قلب ربانى، وأمرته بالتبتل والانقطاع لله ﷻ، ومعلوم أن القرآن المكى كان فى بدايته يربى القلب على الإيمان ويصوغه صياغة إيمانية جديدة فيحل الإيمان محل الكفر ويحل الأنس بالله محل الدنيا بأسرها فيصبح العبد لا يبحث إلا عن رضا الله ﷻ، وتصبح لذته فى لقاء الله، وهناك تربويات كانت قاسية تخرج أناسا بتربية خاصة لمهام خاصة على رأس هؤلاء رسول الله ﷺ ومن أعظم أوامر الله له الخاصة به الشديدة عليه التى نزلت فى بداية المرحلة المكية هى قول الله ﷻ ﴿

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ [الشرح: ٧] -ىا الله- إذا فرغت من الدعوة وجهاد الكفار وجلادهم وتحمل أذاهم وكبرهم وعنادهم إذا فرغت من هذا كله فأقم بدنك فى محراب قىام اللىل ساجدا وقائما لربك أىن الراحة إذن فى حىاته ﷺ؟ إنك تقول لولدك إذا فرغت من واجباتك فالعب أو فاسترح لكن هنا ىقال لرسول الله ﷺ فانصب أى لا راحة وإن أردت الدقة فراحتك ولذتك تكون بىن ىدى الله تلك معانى إىمانىة تربى علىها النفوس الربانىة وعلى رأس هؤلاء سىد البرىة ﷺ، فى هذا السىاق الإىمانى، وبعد أمر الحبىب بقىام اللىل تخبر السورة فى آخر آىة فىها أن طائفة من الذىن ءامنوا معه سىفعلون مثله وسىقومون اللىل ونصفه وثلثه، وىخبر بالتخفىف عنهم لعلمه بأصحاب الحاجات منهم كالمسافرىن أو المجاهدىن أو المرضى فىصبح المطلوب ما تىسر من قىام اللىل بما تىسر من القرآن رحمة من الرحمان سبحانه، تلك قلوب رباها من رباه الله تلك قلوب صىغت من جدىد بحكمة الحبىب توفىقا من ربه ﷻ فكأنها خلقت خلقا جدىدًا بقدرة الله، هؤلاء الصفوة أصحاب التربىة الخاصة فى دار الأرقم فى مرحلة بناء القلب المؤمن والإنسان ىملأ الإىمان قلبه فلا ىوجد مكان لغىر الإىمان وروافده وتوابعه فى قلبه، هؤلاء لأنهم أصحاب تربىة خاصة فى مرحلة خاصة لا بد أن تزىد المطالب منهم؛ فبعد الأمر بالزكاة كسورة البقرة تختص سورة المزمل بقوله تعالى **"وأقرضوا الله قرضا حسنا"** وهى بعد ذكر الزكاة المفروضة تتمحض للصدقة المندوبة ففىها أمر بالصدقة بعد الأمر بالزكاة، لكن أتى الأمر فى أسلوب بلاغى معجز **"أقرضوا الله"** من ىقرض من؟ أنا العبد الفقىر أقرض مالك الملك، ألىس هو الذى قال **"وآتوهم من مال الله الذى آتكم"**، وألىس هو الذى قال **"وأنفقوا مما جعلكم مستخلفىن فىه"**؟ الآىتان من سورتى النور والحدىد، فأخبرنا أن المال ماله وأننا مستخلفون فىه من قبله، بلى هو الذى أخبر بذلك سبحانه إذا كان ذلك كذلك فلم هذا التعبىر العجىب؟ إنها التربىة الإىمانىة القلبىة ىا سادة، إن هذا التعبىر أتى على المجاز ففىه استعارة تصرىحىة فىها من التخىىل والإلهاب والتهىىج ما فىها وفىها أعظم درجات الحث على فعل الصدقة كىف ذلك؟ إن الآىة تشبه المتصدق المؤمن الذى ىعطى الفقىر الصدقة طىبة بها نفسه كمن ىقرض ربه على سبىل التخىىل؛ لأن الله وعد المتصدق بثواب عظىم فمن استجاب لأمر الله وتصدق كمن أقرض مستقرضا فى أنه لابد من إعادة المال فكذلك لابد من المكافأة الربانىة على الصدقة، فكما أن المستقرض حقىقة ىرد المال عند طلبه فإن الله -تفضلًا ورحمة منه-

سىعطىك الجزاء عند الحاجة إلىه ىوم القىامة فكما أن المقترض ىرد المال للمقرض عند حاجته إلىه فأنت أىها المتصدق تجد أجر صدقتك من الله عند الحاجة لذلك ىوم القىامة، وفى ذلك إلهاب وتهىىج وحث للمسلم على الصدقة لأنه حتما ولابد سىجازى على ذلك أعظم الجزاء، وفىها من ترقىق قلب الغنى على الفقىر وبىان أنه ىعامل الله لا الفقىر، وفىه أمرنا بإخلاص العبودىة لله والتوجه إلىه بكل الأعمال، وفىه نفى للرىاء، وفىه تذكىر بعبودىتنا لرب رحىم رفىق، ثم ىوصف القرض بالحسن وهو فى العموم ىأتى مقابلا للقرض الربوى الذى كان منتشرا بىن المشركىن، وفى تعاملات اليهود مع غىرهم العنوان هو الربا وكل ذلك حرمه الله وجعل القرض الحسن حلاً لكل هذه المشكلات الاقتصادىة التى ىصنعها استئثار الغنى بالمال ورغبته فى زىادة المال بأى وسىلة مستغلا حاجة الفقىر، القرض مع الله لىس من هذا الباب إنما هو من باب عطاء الرحمان الرحىم الواسع الذى ىجازى بالحسنة عشرًا وىضاعف لمن ىشاء إلى سبعمائة ضعف، وفى هذا السىاق الإىمانى التربوى المفعم بالمعانى القلبىة تزىد الآىة بعد قوله تعالى ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ ﴾ تزىد قوله تعالى﴿ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ ﴾ وهذا ىتناغم مع المعانى التى ذكرناها فى بىان معنى القرض فإن كان المقرض ىنتظر رد القرض عند حلول الأجل أو عند الحاجة إلىه؛ فإن الخىر الذى تقدمونه ستجدونه عند الله خىرًا وأضعافًا مضاعفة، وقف مع كلمة (خىرًا) وتنكىرها للتعظىم ثم (أعظم) أفعل التفضىل أو قل (خىرًا) للنوعىة أى خىر من نوع خاص وهو خىر الله الذى لا تستطىع العقول إدراكه ولا أن تتخىل حده، فإن الكرىم ىعطى بكرمه والغنى ىعطى بغناه والقادر ىعطى بقدرته وهو لا تحد قدرته ولا غناه ولا كرمه حدود فاترك للعقل أن ىتخىل مقدار الجزاء على الخىر الذى ىقدمه خالصا لله فى الدنىا كىف سىجازى علىه من رب قال ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ ﴾ تخىلى ىا عقول البشر حجم هذا العطاء إنه عطاء لا تحده حدود.

ثانىا : لماذا اختلفت الخاتمة؟ لأن السىاق مختلف والزمن مختلف والمطلوب مختلف؛ ففى البقرة السىاق سىاق تحذىر من عداوة أهل الكتاب وبىان أنهم لا ىتمنون خىرا، وعدم الانشغال بهذه العداوة والصفح عنهم فى هذا التوقىت حتى ىأتى أمر الله بالجهاد، وعدم الانشغال بهم عن المطلوبات

كالصلاة والزكاة وكل أفعال الخير التي رمز لها بالصلاة التي هي صلة بين العبد وربه والزكاة التي تعظم الصلة بين العبد وأخيه المؤمن وتزيد من وشائج الأخوة والمحبة بينهما لاستقامة البناء الداخلي لنكون صفا واحدا أمام عدو غبي، بعد هذا يقول **"إن الله بما تعملون بصير"** أي يرى عملكم ظاهره وباطنه ويجازي على الخير خيرا وعلى الشر بمثله، وهذه الجملة وإن كانت خبرية إلا أنها تحمل معنى الوعد والوعيد والأمر والنهي كيف؟ إن إخبار الله لهم أنه بما يعملون بصير معناه يرى خيرهم وشرهم ويجازي الكل؛ ففيه أمر بفعل الخير ونهي عن فعل الشر، وفيه وعد لفاعل الخير بمثوبة ووعيد لفاعل الشر بالعقوبة، وهذا من عظيم بلاغة القرآن لأنه يناسب سياق التحذير من عداوة أهل الكتاب وتمنيهم الشر لنا وعدم الاغترار بافتراءاتهم التي سيدعونها بعد ذلك من قولهم ﴿ **وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ** ﴾ [البقرة:١١١]، والمعنى قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى، فهذا التحذير يناسبه هذا الختام في هذا السياق، وأظهر الاسم في موضع الإضمار إشعارًا بالاستئناف ليكون ختمًا جامعًا ولأنه لو أضمر لأوهم أن علمه متعلق بما سبق فقط(١)، أما في سورة المزمل فإن الخطاب للصفوة بمطالب عالية تربية لقلوب خاصة في مرحلة خاصة على مهام خاصة زادت هنا المطالب لأن المرحلة التربوية تتطلب ذلك كما بينت سابقًا فكلها أوامر بالطاعات في أعلى درجات الإخلاص لله ﷻ لذلك كان الختام هنا لتلك الفئة الخاصة **"واستغفروا الله إن الله غفور رحيم"** ويجوز أن تكون الواو عاطفة فيكون للجملة بعدها حكم التذييل إرشادًا لتدارك ما عسى أن يعرض من التفريط في بعض المأمورات(٢)، ثم السؤال أنستغفر الله بعد صلاة وقيام ليل وصدقة وأعمال بر؟ نعم لأن ذلك من خصوصيات هذه الفئة الربانية التي شرفت بالتربية النبوية على الأخلاق العالية نعم لأن العبد عبادته لله لاتخلوا من تقصير أو من انشغال قلب أثناء أداء العبادة فتجد من الأذكار بعد الصلاة استغفارالله ثلاثا، فمنا من يأتي بالعبادة ناقصة في خشوعها وحضور القلب فيها، بل منا من لا يتم أركانها وسننها بل منا من يدع بعض العبادات ويغفل عنها في أوقاتها، لذلك أمرنا بالاستغفار جبرًا لهذا التقصير، فإن كان هؤلاء الصفوة وفيهم رسول الله ﷺ أمروا بالاستغفار بعد العبادة فنحن أولى بذلك منهم وإذا كانت جملة **" إن الله غفور رحيم"** تعليلًا للأمر بالاستغفار، وأتى

(١) نظم الدرر للبقاعي جـ١ ص٢٢١.
(٢) التحرير والتنوير جـ٢٩ ص٢٨٩.

بالوصفين الدالين على المبالغة فى الصفة فعول وفعيل إيماءً للوعد بالإجابة[1]؛ فنستغفر الله العظيم ونتوب إليه، وقد اتضح لك علة ختام سورة المزمل بهذا الختام-والله أعلم-.

❁ ❁ ❁

الفصل السابع

قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة:١٢٥] وقال تعالى فى سورة الحج: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الحج: ٢٦] الآيتان من سورتى البقرة والحج تتحدثان عن بناء بيت الله الحرام، وتذكران إبراهيم عليه السلام، وتأمرانه أن يطهر بيت الله لأهل العبادة والطاعة من الطائفين والعاكفين والركع والقائمين إلا أنها ذكرت العاكفين فى البقرة وذكرت القائمين فى الحج فما علة ذلك الاختلاف؟ وللإجابة على هذا السؤال لابد من بيان أمور:

أولًا : السورتان مدنيتان لكن السياق مختلف فى السورتين؛ ففى سورة البقرة الحديث عن إبراهيم وإمامته وعن البيت ومكانته مما استدعى ذكر شئ من فضائله، ثم استدعى ذكر إسماعيل لمشاركته له فى البناء، ثم أطالت فى الحديث عن فضل البيت وتعلق القلوب به، بينما فى سورة الحج المقصد الحديث عن الحج والتحذير من الشرك، وأتى مع الحديث عن الحج الامتنان بذكر الأنعام من ذبحها وإطعامها للناس فقد طولت السورة فى ذلك، وسورة الحج وإن كانت مدنية إلا أن خط التحذير من الشرك يسرى فيها بل لقد افتتحت بنداء يكثر فى القرآن المكى ويندر فى القرآن المدنى **"يأيها الناس"**، بل لم تفتح سورة مدنية بهذا الافتتاح سوى سورة الحج وسورة النساء، والعلة واضحة فى النساء

(١) التحرير والتنوير جـ٢٩ ص٢٩٠.

بالحديث عن النفس الأولى التى يتناسل منها كل الناس وهى نفس آدم عليه السلام، وهنا فى الحج العلة أن السورة بدأت بالحديث عن مشاهد الحشر والزلزلة يوم الحساب وهو مشهد سيعم كل الناس، بل بالنظر فى السورة وجدت أن كلمة الناس وردت فى السورة أربع عشرة مرة، بينما النداء للناس تكرر فى السورة أربع مرات(١)لذلك فإنى أقول مع مدنية السورة إلا أن الخط المكى يسرى فيها وقد طولت السورة فى الحديث عن المشركين وعن الشرك وحذرت منهما؛ ولأن المقصد الحديث عن الحج لا عن البيت لم يذكر إسماعيل الذى شارك فى بناء البيت بينما ذكر إبراهيم لأنه الذى سيؤذن فى الناس بالحج، ولأنه الذى سيقتدى الناس به فى مناسك الحج، وهو الذى ذبح فى الحج، وهو الذى كان سيذبح ولده طاعة لربه لذا ناسب الحج ذكر إبراهيم والحديث عن الذبائح.

ثانيا : الحديث عن إبراهيم وإمامته والبيت ومكانته فى سورة البقرة أتى بعد المقطع الذى طول مع بنى إسرائيل فى أكثر من ثمانين آية، ثم تخلل حديث كان عن بنى إسرائيل فى السورة بعد ذلك، وتحدثت الآية السابقة لآيتنا عن فضل إبراهيم وامتثاله كل أوامر الله وإتمامه الكلمات فجعله الله إماما للناس وأمر المسلمين أن يتخذوا من مقامه مصلى، فالحجر الذى كان يقف عليه أثناء البناء لرفع البناء إلى أقصى ما يستطيع - وأخره عمر إلى مكانه الحالى بعدما كان ملاصقا للكعبة - أمر المسلمون أن يصلوا ركعتين عنده بعد الطواف، ومن إكرامه لأبنائه لما أكرمه الله ﷻ بالإمامة قال ومن ذريتى فكانت الإجابة عهد الله وفضله لا يناله ظالم، بعدها حديث عن البيت فى امتنان واضح على الأمة فى قوله **"وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا"** فقد تعلقت القلوب به وثابت إليه وعادت إليه مرة بعد مرة لا تمل من زيارته والصلاة فيه، وجعله الله ﷻ أمنًا للناس بل لكل المخلوقات والتعبير بقوله "أمنا" فيه من المبالغة ما فيه كأن الأمن كله فيه، ثم أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت للعباد وذكر أصنافهم فبدأ بالطائفين لأنه من خصوصيات بيت الله الحرام فلا طواف إلا حول الكعبة، وأخر الاعتكاف لأنه يلزم له المسجد الجامع وأفضله فى بيت الله الحرام، وأخر الصلاة مع أنها أعظم لأنها لا اختصاص لها بالمسجد أصلًا فمن فضل الله على هذه الأمة أن الأرض جعلت لها مسجدا وتربتها طهورا، مع العلم بفضل الصلاة فى بيت الله الحرام على بقية المساجد، وذكر العاكفين فى البقرة لأن الحديث هنا

(١) وذلك فى الآيات ١، ٣، ٥، ٨، ١١، ١٨، ٢٥، ٢٧، ٤٠، ٤٩، ٦٥، ٧٣، ٧٥، ٧٨، والأرقام التى وضعت تحتها خط هى التى فيها النداء وهى ١، ٥، ٤٩، ٧٣.

عن البيت وعن إمامة إبراهيم فيناسبه الاعتكاف الذى يكون أفضله فى بيت الله الحرام؛ ولأنه مشتمل على كل العبادات فالاعتكاف يلزم له صيام عند بعض أهل العلم، والمعتكف لا عمل له إلا الطاعة والعبادة من صلاة وقراءة قرآن، والمعتكف لا يبرح المسجد فكما كان الحديث سيق ابتداء للحديث عن إبراهيم وإمامته والبيت ومكانته ذكر الاعتكاف الذى هو لزوم المسجد وإمامة إبراهيم ناسبها ذكر الاعتكاف لأنه لزوم المسجد للطاعة وهو عبادة تشتمل على مجموعة من العبادات والأنبياء والأتقياء أولى الناس بهذه العبادة الجامعة، بينما فى سورة الحج لما كان الحديث عن الحج وعن الذبح والأكل من الذبائح فناسبه ذكر القائمين دون العاكفين لأن الحج لا اعتكاف فيه ولا وقت للحاج فيه يمكّن فيه من الاعتكاف بل كل أعمال الحج قائمة على الحركة والقيام والطواف والسعى والوقوف بعرفة والوقوف بالمشعر الحرام أغلب مناسك الحج يناسب القيام ويبعد عنها الاعتكاف، ثم إن ذكر القيام يناسب ذكر الذبائح وفيها الإبل التى تنحر قائمة، ثم إنه فى الآية السابقة ذكر أهل الكفر الذين يصدون الناس عن بيت الله الذى جعله الله ﷻ لكل الناس سواء من أراد الاعتكاف فيه أو الصلاة والطواف ثم الرحيل، فلما ذكر الاعتكاف فى الآية السابقة اقتصر على ذلك ولم يذكره هنا[1] وذكر ما هو أكثر مناسبة للسياق فلما ذكر المشركين وصدهم عن بيت الله ﷻ الذى (أسس لمن يعبد الله وحده إما بطواف أو صلاة فذكر فى سورة الحج أجزاءها الثلاثة من قيام وركوع وسجود ولم يذكر العاكفين لتقدم ذكره فى الآية السابقة، وفى آية البقرة ذكر الطائفين والعاكفين واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام للعلم أنه لا يكون ركوع وسجود إلا بعد قيام)[2] وذكر الاعتكاف فى البقرة ليناسب قول الله ﷻ فيه ﴿ **وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ** ﴾ [البقرة: ١٨٧] ، وأضاف البيت إليه سبحانه تشريفا فى السورتين فقال فى البقرة **"أن طهرا بيتى"** وفى الحج **"وطهر بيتى"**، وذلك أنه إذا كان السياق للحديث عن البيت ومكانته فناسبه الإضافة إلى الله للتشريف، وإذا كان الحديث عن الحج فإن الكعبة التى يطوف الناس حولها وكل أماكن الحج أخذت التقديس من تلك الإضافة لله التى أفادت التشريف، ويؤدى المسلم المناسك فيها بملابس الإحرام التى هى أقرب للكفن الذى يحمله المسلم على عاتقه وقد قتل نفسه

(١) ملاك التأويل للغرناطى جـ١ ص٢٢٧، ط دار الكتب العلمية بيروت.
(٢) ينظر مختصر تفسير ابن كثير ص١٧٣ ط التوفيقية.

بالذنوب فحمل كفنه ورحل لربه ذلىلًا طالبًا العفو لتسلم له دنىاه وأخراه، فهذه أماكن تحدث فىها هذه المعانى الإىمانىة فتشهد من الخلق أعلى درجات العبودىة للخالق بل هى أماكن شرفت بأطهر الخلق ﷺ كل ذلك ىناسب إضافة التشرىف، ولما كان السىاق فى البقرة ذكر إمامة إبراهىم ومكانة البىت ناسبه أن ىذكر جعل البىت مثابة فىذكر فضل البىت وتشوق الناس إلىه، ولما كان السىاق للحدىث عن الحج هناك ناسبه ذكر تهىئة الله ﷻ البىت وإظهار القواعد لإبراهىم لىبنى الكعبة التى سىكون الطواف حولها من أعظم أركان الحج فناسبه قوله "بوأنا" بىنما فى البقرة ناسبه (مثابة) -والله أعلم-.

❁ ❁ ❁

الفصل الثامن

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ

فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ١٢٦] ، وقال تعالى فى سورة إبراهيم: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم:٣٥]، وقال تعالى فى سورة النحل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال تعالى فى سورة القصص: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ٥٧] وقال تعالى فى سورة قريش ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴾ [قريش: ٣، ٤] ، فى سورة البقرة وهو دعاء سيدنا إبراهيم وطلبه من الله ﷻ أن يجعل مكة بلدا آمنا، وكذا فى سورة إبراهيم إلا أن البلد وردت نكرة فى البقرة ووردت معرفة فى سورة إبراهيم فما علة ذلك، ولم خصت كل سورة بما ورد فيها؟ وفى سورة البقرة ورد تقديم الأمن على الرزق وعلى الإسلام، وفى سورة إبراهيم ورد تقديم الأمن على سلامة التوحيد من الشرك وعلى الرزق، وفى سورة النحل ورد تقديم الأمن على الرزق وزاد الاطمئنان، وفى سورة القصص ورد تقديم الأمن على الرزق أيضًا، بينما فى سورة قريش ورد تقديم الرزق على الأمن فما علة ذلك؟ وللإجابة على ذلك أقول مستعينًا بالله:

أولًا : فى سورة البقرة كان الحديث عن إبراهيم وإمامته وعن البيت ومكانته، وتحدثت السورة عن بداية بناء بيت الله ﷻ بعد أن كانت المنطقة صحراء جرداء فطلب إبراهيم عليه السلام من ربه ثلاثة أشياء الأول أن يجعل هذه البقعة بلدًا، الثانى أن يجعل هذا البلد آمنا، الثالث أن يرزق أهله من الثمرات،بينما فى سورة إبراهيم أتى الحديث فى سياق النعم فقبلها امتنان الله ﷻ على عباده بكثير من نعمه فى الكون وختم ذلك بقوله **"وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها"** وبعدها أتت آيتنا هذه فطلب إبراهيم من ربه أمرين الأول أن يجعل هذا البلد آمنا، الثانى أن

ىجنبه وبنىه عبادة الأصنام وأن ىكتب لهم التوحىد الخالص، لذلك أتت نكرة فى البقرة بىنما أتت معرفة فى إبراهىم، ففى الأولى اجعل هذا بلدًا، وفى الثانىة لما أصبحت بلدًا أتت معرفة، ثم طلب أن ىجعل البلد آمنا لذلك أتى التعرىف متأخرًا فى سورة إبراهىم وأتى التنكىر متقدمًا فى البقرة، وقيل عبر بالنكرة قبل بنا ء الكعبة فى البقرة(١)، وعرف فى إبراهيم بعد بناء الكعبة وكأنها ستصبح بلدًا بعد بناء الكعبة(٢)-والله أعلم-.

ثانىا : فى سورة البقرة قدم الأمن لأهمىته لأنه بدون الأمن لا رزق ولا إسلام ولا إىمان، بل الإىمان والأمان من باب واحد؛ لذا قدم الأمن على الرزق وعلى الإسلام فى قوله ﴿ **رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ**﴾ [البقرة: ١٢٨]، وفى سورة إبراهىم قدم الأمن على التوحىد والسلامة من الشرك وعلى الرزق المذكور بعد ذلك فى قوله ﷻ : ﴿ **وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ**﴾ [إبراهىم: ٣٧] ، وفى النحل قدم الأمن على الرزق، بل عبر عنه بصىغة اسم الفاعل للدلالة على الثبوت والرسوخ مبالغة فى الإكرام، وأضاف إلىه الاطمئنان وأتى به وصفًا ثابتًا مستقرًا، وأخر الرزق وعبر عنه بالفعل المضارع "ىأتىها" لتجدده وتكرر حدوثه فإن الأمن وصف ثابت لهم بإكرام الله لهم إكرامًا لجوارهم لبىت الله وحرمه، ثم جعل الرزق رغدًا ىأتىها من كل مكان أى أن كل ثمار الدنىا تحمل لها وهذا إكرامًا للمكان الذى تهفوا النفوس إلىه كما طلب إبراهىم ذلك فى سورة إبراهىم، فلما جحدت النعم المتتابعة والأفضال المتعاقبة جاعت وخافت، لكن أتى التعبىر عن الجوع والخوف فى قالب بلاغى معجز، وذلك استجابة لدعوة النبى ﷺ علىهم لما سأل الله أن ىجعلها علىهم كسنى ىوسف، وبعد أن كانت آمنة أحلها الله ﷻ لنبىه ساعة فخافت حتى فتحها الله ﷻ لنبىه فأمن أهلها ثانىة، ولذلك قدم الجوع على الخوف وكان ىمكن أن ىقدم الخوف على الجوع لىناسب تقدىم مقابل كل من الأمن والرزق، لكن لأن النبى ﷺ دعا علىهم وهو فى المدىنة قبل فتح مكة فحدث الجوع ثم كان الخوف بعده فى السنة الثامنة لما فتح النبى ﷺ مكة لذا أتى تقدىم الأمن على الرزق على الأصل وعكس فى مقابل كل لأن هذا هو الذى حدث فى الواقع فقد كان الجوع قبل الخوف-والله أعلم-.

(١) ينظر درة التنزيل للإسكافى ص١٦، وإن كان الغرناطى يرفض هذا المعنى، ينظر ملاك التأويل جـ١ ص٢٣٨.

(٢) البرهان فى توجيه متشابه القرآن للكرمانى ص٧٨.

وقف مع قوله أذاقها ولباس وما قيل فيها من أن المعنى أذاقها الجوع وكساها لباس الخوف لكن التعبير القرآنى أتى فريدًا فى استعارة مرشحة معجزة كاشفة عن أسرار المعنى وتذكر قول الله ﷻ ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ [الدخان:٤٩] والتعبير بالذوق فى العقوبة ولم يقل كساها لباس إنما قال أذاقها لباس واللباس لا يذاق والجوع لا يكسى، وكأن الآية جمعت استعارتين ومجازين فى مجاز واحد مع شئ من الترشيح بل والتجريد، وتوضيح ذلك أن الذوق فى المطعومات فأتت الاستعارة الأولى فى الجوع والمعنى أحسوا بالجوع أشد الإحساس كإدراك اللسان مذاق المطعومات ففيها استعارة تصريحية تبعية، والخوف عبر عنه بكسا والكساء من الثياب ما يكسو البدن والمعنى أن الخوف عم وطم فهو استعارة لإحاطتهم بالخوف من كل مكان ففيها استعارة أصلية تصريحية، والبلاغة العالية فى القرآن بين الاستعارتين وإسناد الاثنين إلى الاثنين فأسند الذوق واللباس إلى الجوع والخوف، وهذا من فرائد تعبيرات القرآن فانتبه

أيا ما كان فقد قدم الأمن على الرزق على الأصل وآخر مقابل الأمن عن مقابل الرزق فى نهاية الآية فقدم الجوع على الخوف لأن هذا هو الترتيب الذى حدث -والله أعلم-، وفى سورة القصص قدم الأمن على الرزق على الأصل، فلما ادعت مكة أنها إن آمنت به ﷺ رماها الناس عن قوس واحدة **"وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا"** وبنى الفعل للمجهول وحذف فاعله للدلالة على العموم أى أن الدنيا كلها ستحاربنا، فكان الرد **"أولم نمكن لهم حرمًا آمنًا يجبى إليه ثمرات كل شئ رزقًا من لدنا"** أى تذكروا إنعام الله عليكم زمن كفركم لقد يسر الله لكم حرمًا آمنا ورزقًا واسعًا لدرجة أن كل ثمرات الدنيا تحمل إليكم، وكما قالوا (نتخطف) قال (يجبى) أى أن الدنيا كلها كانت تخدمكم وتحمل خيرها إليكم، والمعنى كنتم كفرة وكان هذا عطاء الله إليكم أيوم تؤمنون يترككم؟ إنه تذكير لهم بما مضى مما عاينوه من إنعام الله عليهم حالة كفرهم فكيف بهم يدعون الخوف مع الإيمان الذى يستدعى أن يزيد عطاء الله لهم، ولاحظ **"ثمرات كل شئ"** ولاحظ **"رزقًا من لدنا"** أى عطاء لدنيا إلهيا لا دخل لكم فيه، بل ولا استحقاق لكم فيه، وكان الختام **"ولكن أكثرهم لا يعلمون"** مناسبًا فى سورة تتحدث عن الفرعونية الطاغية والقارونية الكانزة والهامانية المسيطرة فيعم الشر فى الأرض لأن الذين لا يعلمون ممن يقودون لذا تفسد الدنيا بهم، والآية

وردت حدىثًا عن الكفار وفى سورة القصص التى تتحدث عن فرعون الذى كان فى مصر التى تعانى منذ عصور من الفرعونىة الطاغىة وأختىها -كما سبق- فى إشارة إلى أن أهلها ىوم ىزىل الله طاغىتها وهاماناتها بدلًا من أن ىشكروا الله بتحكىم شرعه وإقامة العدل بىن خلقه الذى لن ىكون إلا بمنظومة سماوىة لا أرضىة، بدلًا من أن تفعل ذلك سىقول قائلهم لو أعلنا راىة الشرىعة لحاربتنا الدنىا فلن نعلن ولىس هذا وقت الشرىعة؛ لذا كبها الله على وجهها فحرمت عدل البشر مع عواره بعدما تكبرت على عدل الخالق وحرمت الأمن والأمان ودخلت التىه الذى لا مخرج منه إلا بالعودة إلى شرع الله، ولعله لهذا المعنى أتت الآىة فى سورة القصص التى تعنى بحرب الفرعونىة الطاغىة والقارونىة الكانزة والهامانىة المسىطرة فى إشارة واضحة لما ذكرته، أما فى سورة قرىش فقد أتى الأمر على خلاف ما سبق فقد قدم الرزق على الأمن فقال﴿ **أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ وعلة ذلك أن السورة مسوقة أصلا للامتنان علىهم بالتجارة فى رحلةُ الشام واليمن، أو كما ذكر القرآن رحلة الشتاء والصىف، فقد قال كثىر من المفسرىن إن الجار والمجرور الذى بدأت به السورة متعلق بالسورة السابقة علىها، والمعنى فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفىل لأجل قرىش واستقامة مصالحهم وانتظام رحلتهم فى الشتاء للىمن وفى الصىف للشام لأجل التجارة والمكاسب(١)، هذا سىاق السورة الذى ىناسبه تقدىم الرزق على الأمن، ىضاف لذلك أن الرزق قدم مع أن الأمن أهم لأن الأمن كان مكفولًا لهم بجوارهم لحرم الله الذى كانت الجاهلىة تعظمهم لأجله بل وتعظمه وتعظم وتحرم الاعتداء فىه؛ فلو رأى أحدهم قاتل أبىه داخل الحرم ما اقترب منه، فلما كان أمر الأمن مكفولًا لهم بسبب جوارهم لحرم الله وكانت مشكلتهم فى التجارة لأنهم بلد تجارىة لا صناعىة ولا زراعىة فلا تقوم على الإنتاج بقدر ما تقوم على التجارة فكانت المشكلة فى الرزق لأنهم لا زراعة عندهم، ىدلك على ذلك آىة القصص **"ىجبى إلىه ثمرات كل شئ"** فكان من الطبىعى أن ىقدم الأهم عندهم الموافق لخصوصىة حالهم -والله أعلم-، وفى كل ما سبق كان المقدم الأمن لأنه الأهم ولأنه إذا سلب فلا رزق لأنه إذا عدم الأمن فى الطرىق لن ىأتىك الطعام الذى ىنقل إلىك، وقدمه على الإسلام والإىمان فى البقرة وإبراهىم لبىان أهمىته ولأنه طرىق الإىمان والإسلام -والله أعلم-.

(١) ىنظر تفسىر السعدى ص ١٠٣٤ ط مكتبة الرحاب.

هذا.. ومن تمامية البحث فى آية إبراهيم أن نتحدث عن الآية التى سبقتها وهى قوله تعالى ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقوله تعالى فى سورة النحل﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٨] فنجيب عن علة اتفاق الآيتين فى المقدمة والاختلاف فى الخاتمة، ثم ما علة ذكر النعمة مفردة مع قوله تعدوا التى تقتضى جمعًا ليعد فلم يقل نعم الله وأتى بالنعمة مفردة، وللإجابة على ذلك أقول مستعينًا بالله:

أولًا : أتت النعمة مفردة مضافة إلى الله ﷻ للدلالة على عموم جنس النعمة والأصرح منه فى الدلالة التعبير عنها بصيغة الجمع؛ لكن أتت هنا مفردة للدلالة على إمكانية العد فى النعمة الواحدة والمعنى أن نعم الله كثيرة عظيمة فكل نعم الله لا تحصى بل النعمة الواحدة إن دققت فيها وجدتها مشتملة على مجموعة من النعم لا تكاد تحصى(١)، وخذ لذلك مثلًا نعمة الزواج تحدث عنها القرآن مرارًا فمرة يقول القرآن: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١] لاحظ الجمع فى قوله "**ومن آياته**" وقوله "**لآيات**" فالزواج فيه مجموعة من النعم ذكر منها هنا نعمة السكن والهدوء النفسى وميل القلب إلى الراحة والأمان بجوارها ونعمة المودة والرحمة، ومرة ثانية نجد القرآن يقول: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة:١٨٧] فيذكر نعمة الزواج ويخص منها بالذكر هنا الدفء العاطفى والأمان النفسى وقضاء الوطر والعفاف والإعفاف بذلك فالتشبيه باللباس فيه أمور منها كما أن اللباس يحيط بك فهى تحيط بك وأنت تحيط بها فى حالة العناق والمباشرة، وكما أن اللباس ألصق شئ بجسدك فهى أقرب الخلق لك وألصقهم بك وتحدث هذه الملاصقة ساعة الجماع والمباشرة المذكورة فى الآية، وقد تحمل على القرب النفسى، واللباس ضرورى لك ولها وأنت ضرورى لها وهى ضرورية لك، واللباس يستر وهى تستر وأنت تسترها، تلك بعض النعم التى ذكرت فى سورة

(١) حاشية الشهاب جـ٥ ص٤٧٢.

البقرة، ومرة يقول: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: ٧٢]، فيذكر بعض نعم الزواج ويخص منها نعمة الولد والذرية الصالحة التى تخدمك وتعينك وتقر عينك بها، لذا عبر بالمفرد فقال **"وإن تعدوا نعمة الله"** ليبان أن النعمة الوحيدة مشتملة على مجموعة من النعم عند التمعن فيها.

ثانيا : لماذا اختلف الختام ليبان ذلك أقول: إن النعمة تقتضى منعِمًا وهو الله ومنعمًا عليه وهو الإنسان، فآية إبراهيم ذكرت إنعام الله على العبد وختمت بذكر رد فعل العبد فكانت مجيبة على سؤال ماذا فعل العبد بنعمة الله هل شكر أم كفر؟ وأتت الإجابة **"إن الإنسان لظلوم كفار"** صيغة مبالغة أى يكثر فيه الظلم وكفران النعمة، ولا يخفى ما فيها من الاستئناف البيانى لأنها إجابة عن سؤال سائل كأنه سأل لمَ لم يراعوا حقها؟ فكانت الإجابة السبب أن الإنسان ظلوم كفار(١)، أما فى النحل فأجابت عن حال المنعِم بعد كفران المنعم عليه للنعمة، والمعنى بعد أن كفر العبد النعمة ماذا فعل الله به هل عاقبه بحرمانه من النعمة فكانت الإجابة **"إن الله لغفور رحيم"** غفر له ورحمه وما حرمه من النعمة، أما لماذا أتت هذه فى إبراهيم وتلك فى النحل؟ فلأن إبراهيم ذكر فيها الظلم ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم:٤٢] وقوله ﷻ ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم:٤٤] وقوله ﷻ ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم :٤٥]، وقبل آيتنا ورد قوله ﷻ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨] كل هذا تسبب فى أن تكون الخاتمة فى إبراهيم ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ

(١) حاشية الشهاب جـ٥ ص٤٧٢.

كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم :٣٤] ، أما فى النحل فلأنها سورة النعم التى سبقت ولحقت آيتنا فكان لزامًا أن تكون الخاتمة **"إن الله لغفور رحيم"** ليناسب سياق الامتنان بالنعم على الخلق، وانظر إلى السورة من أولها إلى هذه الآية تجد سياق النعم هو السائد، ولكن لماذا أتت **"الظلوم كفار"**أولًا و**"لغفور رحيم** " ثانيا؟ والإجابة واضحة لأن الله ﷻ أنعم والعبد كفر النعمة، فثار سؤال ماذا فعل بالعبد أعاقبه بحرمانه من النعمة؟ فكانت الإجابة لا، إنه غفور رحيم ، يعفو ويصفح ، هذا -والله أعلم-.

❁ ❁ ❁

الفصل التاسع

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة :١٢٩] ، وقال تعالى فى سورة البقرة: ﴿كَمَا أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا

لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١] ، وقال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولاً مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقال تعالى فى سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] الآيات تتحدث عن فضل الله ﷻ علينا بإرسال أفضل رسله إلينا بأعظم كتبه، وورد ذلك فى سياقات مختلفة، فمرة يكون ذلك فى دعاء سيدنا إبراهيم لأهل البلد الحرام أن يبعث فيهم نبيا منهم ليعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، ومرة يأتى الخطاب من الله ﷻ للأمة مباشرة فى سياق امتنان بإنعام فى قوله ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِى عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ﴾ إلى آخر الآية، ومرة يمتن على الأمة أن بعث فيها رسولًا منها يقوم بوظيفة الرسالة من التلاوة والتعليم والتزكية كالآية السابقة، ومرة يتحدث ربنا عن نفسه ويعرفنا بنفسه بأنه الذى أرسل إلينا رسولًا منا ليقوم بوظيفة الرسالة، والناظر فى الآيات يجد اختلافات كثيرة فى الألفاظ تلفت الانتباه وتحتاج تعليلًا وإليك جدول الفوارق:

١.ابعث	فيهم	رسولًا	منهم	يتلوا عليهم آياتك	ويعلمهم الكتاب	ويزكيهم	إنك أنت العزيز الحكيم
٢.أرسلنا	فيكم	رسولًا	منكم	يتلوا عليكم آياتنا	ويزكيكم	ويعلمكم الكتاب	ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون
٣.بعث	فيهم	رسولًا	من أنفسهم	يتلوا عليهم آياته	ويزكيهم	ويعلمهم الكتاب	وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين
٤.بعث	فى الأميين	رسولًا	منهم	يتلوا عليهم آياته	ويزكيهم	ويعلمهم الكتاب	وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين

لقد اتضحت الفوارق بين الآيات الأربع ولبيان العلة البلاغية لهذه الفوارق لابد من مقدمة نعرف من خلالها مهمة الرسول فى قومه

وعمل الوحي في أمته والمنهج الأمثل في توصيل هذا الوحي للقلوب، وبيان ذلك أن الله أرسل رسوله بكتابه إلى أمته ﷺ ليخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان بالآيات البينات التي سماها الله بصائر فقال تعالى ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] ، فسمي القرآن وآياته بصائر أي علامات ومنارات يهتدي بها، أو تُبصر بها الحقائق الإيمانية وتبصرها القلوب فتصل رسالة الآيات إلى القلوب، وسمي القلوب التي عرفت الحق واتبعته قلوبًا مبصرة، والقلوب التي أعرضت وصفها بالعمى فقال تعالى﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٤] فالآية تحتاج قلبًا يبصرها فهناك فارق بين البصر والبصيرة فالبصر يقال للجارحة الناظرة، ويقال لقوة القلب المدركة بصيرة وجمعها بصائر[1]إذن نحن نحتاج قلوبًا مضيئة نبصر بها الوحي فكم من آية تقرأ ولا تبصر، وانظر على سبيل المثال إلى أبي بكر يوم وفاة رسول الله ﷺ لما أبصر قول الله ﷻ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] انظر كيف أبصرها دون غيره، ثم أبصرها الناس بعده، بعدما ذكرهم بها يقول أحدهم كأني لم أقرأها من قبل، وكأنها نزلت الآن، لقد قُرئت لكنها ما أبصرت إلا الآن، هذا هو الوحي بصائر ووظيفة القلوب أن تبصره، ووظيفة النبي أن يبصر هذه القلوب بهذا الوحي، فما المنهج الذي سيسلكه النبي للوصول بأمته لهذه الغاية المنهج مذكور في الآيات عبارة عن تلاوة بمنهج التلقي، وتعليم بمنهج التدارس وتزكية بمنهج التدبر بذلك نبصر الآيات وبدون ذلك نقرأ ولا نبصر كمن ينظر ولا يبصر بجارحته قال تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:١٩٨]، وللدخول في هذا المنهج والسير فيه بنجاح لابد من

(١) ينظر المفردات للراغب الأصفهاني ص٤٩.

إدراك أن القرآن رسالة الله إلىنا فإجلاله من إجلال الله والتعامل معه لا بد أن يكون فى قمة التواضع والقبول والتسلىم تلك مقدمة لأعمدة المنهج الثلاثة وكلها مذكورة فى الكتاب والسنة فالتلاوة بمنهج التلقى واضحة فى قوله تعالى:﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل:٦]، وواضحة من فعل النبى ﷺ العملى مع أصحابه، والتدارس مذكور فى السنة ممدوحًا خاصة إذا كان فى بىت من بىوت الله بل أخبر النبى أن الرحمة تغشى مجلس تدارس القرآن وأن الملائكة تحفهم ترغىبًا فى هذا المجلس، والتزكىة بمنهج التدبر مذكورة فى قول الله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤] والنبى ﷺ وكذا علماء أمته من بعده وظىفتهم القىام بهذا المنهج الماثل فى هذه الخطوات الثلاث، وقد ذكرت الآىات الأربع ذلك بالتفصىل مع اختلاف راجع إلى اختلاف السىاق وإلىك علة هذا الاختلاف:

أولًا : فى الآىة الأولى سىدنا إبراهىم عليه السلام بعد أن سأل الله ﷻ للأرض الجرداء أن تصبح بلدًا وآمنة وعامرة بالناس سأل لأهل هذه البلد الذىن هم من ذرىته وولده إسماعىل أن ىبعث فىهم رسولًا منهم فذكر البعث دون الإرسال، فالبعث (إثارة الشئ وتوجىهه وهو ضربان بشرى وإلهى، والإلهى ىأتى بمعنى الإىجاد وبمعنى إحىاء الموتى)[(١)] لذلك كان الأنسب فى هذا السىاق الذى ىتحدث فىه عن أرض كانت مىتة وسأل الله ﷻ لها الحىاة وأن ىرسل لها أهلها الذىن سىعمرونها وىسأل لهؤلاء أن ىبعث فىهم رسولًا ىحىىهم بالإىمان بعد أن ماتت قلوبهم بالكفر، فتلك علة اختىار الفعل "ابعث" وأتى بصىغة الأمر لأنه ورد طلبًا ودعاء من إبراهىم لربه، وقال رسولًا لأن البعث لا ىلزم منه وجود رسالة أما الإرسال فلا بد أن ىكون برسالة فلما عبر بفعل البعث كان لا بد أن ىذكر (رسولًا)[(٢)] وقال ىتلوا علىهم آىاتك بصىغة المخاطب لأنه ىطلب من ربه وىخاطبه والتلاوة خصت بالذكر دون القراءة لأنها قراءة خاصةبكتب الله السماوىة وفىها معنى الاتباع[(٣)]، وقال ىعلمهم الكتاب ىخبر عن الأمة بصىغة الغائب لأنه ىطلب من ربه لأمة غائبة عن الحوار، بل لم تكن موجودة بعد، وذكرالحكمة مع تعلىم الكتاب وهى السنة، أو إفهام الكتاب، أو على أصل معناها، وذكر التزكىة بمعنى

(١) المفردات ص٥٢.
(٢) الفروق اللغوىة لأبى هلال العسكرى ص٢٨٣.
(٣) المفردات للراغب الأصفهانى ص٥٧.

التطهر وهذا هو الترتيب الطبيعى فالتلاوة والتعليم أولًا، وتأتى التزكية ثمرة لذلك، وأتى بالترتيب الطبيعى بذكر الوسيلة ثم الغاية لأن هذا من طلب إبراهيم عليه السلام لهذه الأمة، وكانت الخاتمة "**إنك أنت العزيز الحكيم**" لأن هذا هو المناسب لمقام الدعاء فإنه بعزته وحكمته يستجيب هذا الدعاء.

ثانيا : وفى الآية الثانية ربنا يمتن علينا بإتمام نعمه علينا، من هذه النعم أعظمها وهى إرسال رسول الله إلينا بأفضل كتاب سماوى الكتاب الخاتم مع النبى الخاتم ﷺ فقال تعالى ﴿ **وَمِن حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٠، ١٥١]، فالسياق سياق امتنان بتمامية الإنعام لذلك عبر بالإرسال دون البعث لأن الإرسال الانبعاث على التؤدة وتصور منه تارة الرفق فقيل على رسلك(١) فناسب الإرسال هذا السياق، ثم إنها الآية الوحيدة القائمة على الخطاب من الله لنا دون بقية الآيات القائمة على الغيبة، والخطاب من الله أشرف من الغيبة لذا اختصت بالإرسال دون بقية الآيات التى اختصت بالبعث، وكذلك هنا قدم التزكية والتطهير على التعليم للكتاب والحكمة لأن التزكية ثمرة وغاية لهذا التعليم فقدم الغاية ليتنبه لشرف الوسيلة وليتذكر أنه يتعلم للتزكية لا لمجادلة العلماء أوالتعالم على العامة والدهماء، وذلك كقوله تعالى ﴿ **ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ** ﴾ [الرحمن١-٤] فالإنسان خلق أولًا ثم عُلم القرآن ثانيا لكنه قدم "**علم القرآن**" على قوله "**خلق الإنسان**" ليعلم أنه خلق من أجل القرآن فقدم الغاية على الوسيلة فآيتنا من هذا الباب، ولأن السياق سياق امتنان بتمامية الإنعام كانت الخاتمة فريدة "ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون" والعمومية فيها تناسب هذا السياق.

(١) المفردات ص١٩٥.

ثالثًا : فى الآية الثالثة السياق فى سورة آل عمران سياق الحديث عن غزوة أحد، بعدها يمتن ربنا علينا بنعمة إرسال نبى لنا منا، ويختار لهذا السياق فعل "بعث" لما فيه من معنى البعث لأنهم كانوا أمة مُنيت بالجهل والشرك وسيبعثها الله بالإيمان عن طريق هذا النبى ﷺ الذى سيحى الله القلوب به، ولأنهم رأوا الموت عيانًا فى أحد؛ ولأن النبى أصيب وأشيع قتله فحدث ما حدث فناسب ذكر فعل البعث دون الإرسال هنا، وهى الآية الوحيدة التى قالت "**رسولًا من أنفسهم**" ولعل ذلك ليناسب الآية التى بعدها ﴿ **أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ** ﴾ [آل عمران: ١٦٥] ولأن الآية فى سياق المنة عليهم ناسب ذكر "**من أنفسهم**" لمزيد الحنو والمنة(١)، وقدم التزكية والتطهير على التعليم للعلة التى سبقت فى الآية الثانية، وختمت بقوله "**وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين**" لأن السياق سياق امتنان وحديث عن محنة عارضة ألا وهى مصابهم فى غزوة أحد، وكأن المعنى لا تجزعوا فقد كنتم فى ضلال مبين واضح ومننت عليكم برسول يخرجكم من هذا كله وتزكوا نفوسكم معه فاحرصوا على طهارة قلوبكم التى تمت من خلال هذه النعمة.

رابعًا : فى الآية الرابعة ربنا يعرفنا بنفسه فتبدأ السورة بالتسبيح، ثم بأربعة من أسمائه الحسنى، ثم بالإخبار عن نفسه أنه هو الذى بعث فى الأميين رسولًا منهم، واختار فعل البعث للسبب السابق فهم أميون يحيون بالعلم بكتاب الله، وهى السورة الوحيدة التى ورد فيها لفظ الأميين من بين السور أو الآيات الأربع ليناسب الحديث عن اليهود الذين كانوا يقرأون ويكتبون وأكرمهم الله بالتوراة فلم يعملوا بما فيها وشبههم بالحمار –مع الاعتذار للحمار- كما بينت سابقًا وقبل ذلك يقول ﷻ ﴿ **ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ** ﴾ [الجمعة: ٤]، كل ذلك ناسبه ذكر وصف الأمية لهذه الأمة التى خصت بهذا النبى وهذا الكتاب دون اليهود أهل القراءة والكتابة الذين كانوا ينتظرون أن يخرج منهم بل كانوا يستفتحون به على الذين كفروا،وقدم التزكية على التعليم للسبب السابق ذكره، وكانت الخاتمة "**وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين**" مما يناسب ذكر أميتهم وجهلهم قبل الإسلام -والله أعلم-.

(١) ينظر كشف المعانى لابن جماعة ص١٠٦.

هذا وقد بقيت أمور اشتركت كل الآيات فيها منها أنه ذكر حرف الجر (فى) مع الكل فعدى الفعل بـ(فى) فى الآيات الأربع لبيان شئ من وظيفة النبى التربوية دل على ذلك (فى) بظرفيتها التى تبين أثره فيهم، وكيف سيكون بينهم كواحد منهم قريبًا منهم يعلمهم فرادى وجماعات كما كان يفعل ﷺ فى دار الأرقم أول محضن تربوى وإيمانى فى هذه الأمة، ولبيان وظيفة العلماء الربانيين والدعاة المربين فلا بد أن يكونوا فى وسط الناس يعلمون ويربون، فالعالم الذى يعلم ولا يربى الجهل خير من علمه، فالعلم إن لم يثمر خُلقا وتربية لا خير فيه، بل العلم كل العلم بلا أخلاق قوة مدمرة، وفيها أن السياق فى كل الآيات كانت الغيبة عنوانًا له باستثناء الآية الثانية التى وردت بصيغة الخطاب؛ لأنها فى سياق خطاب الله لنا وامتنانه علينا بتمامية نعمه فناسب ذلك ذكر الفعل (أرسلنا) دون (بعثنا) لأنه لا حاجة لمعانى البعث هنا -والله أعلم-.

ومنها أن السور كلها مدنية وهذا يناسب تمامية النعمة بكمال نزول القرآن وكمال تدبره وتزكية النفوس به وتمامية وظيفة رسول الله ﷺ وهذا لن يكون إلا فى المدينة.

هذا.. وكل الآيات ذكرت التلاوة ثم التعليم، وقد يظن التكرار لكن عند التدقيق نجد أن التلاوة إقراء وأن التعليم إفهام وإيصال معنى للقلوب -والله أعلم-.

❁ ❁ ❁

الفصل العاشر

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة :١٣٦] وقال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٤] ، الآيتان من سورتى البقرة وآل عمران تخبران بما يجب الإيمان به من الإيمان بالله وكتبه ورسله وعدم التفريق بينهم، والثبات على الإسلام لكن يلاحظ أن الآية الأولى صُدرت بـ(قولوا) بينما صُدرت الثانية بـ(قل)، وعدى الفعل فى الأولى بـ(إلى" بينما عدى فى الثانية بـ(على" وتكرر فعل الإيتاء فى الأولى فقال **"وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم"** بينما لم تتكرر فى الثانية فقال **"وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم"** فما علة هذا الاختلاف؟ وللإجابة على ذلك أقول مستعينًا بالله:

أولًا : بالنظر فى سياق كل آية سنجدها ألصق وألصق بما ورد فيها؛ وذلك أن الآية الأولى وردت فى سورة البقرة بعد قوله تعالى:﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥]، أى قالت اليهود للمسلمين كونوا هودًا تهتدوا، وقالت النصارى للمسلمين كونوا نصارى تهتدوا، فرد القرآن عليهم وقال للمسلمين قولوا آمنا بالله إلى آخر الآية فالخطاب من الله لعموم المسلمين فناسبه قولوا بالجمع ردًا على ادعاء اليهود والنصارى أما فى سورة آل عمران فإن الآية وردت خطابًا لرسول الله ﷺ ففيها ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٨٤] ، فالآية كما ترى تذكر الميثاق الذى أخذه الله على

النبىىن من الإىمان برسول الله ﷺ لذا كان الخطاب فى الآىة موطن الدراسة لرسول الله ﷺ فناسب أن تبدأ بـ(قل)[١].

ثانىا : لما كانت الآىة الأولى حدىثًا وخطابًا إلى المسلمىن ناسبه أن ىعدى الفعل بـ(إلى) لأن الوحى نزل على الأنبىاء لىوصلوه إلى أقوامهم فناسبهم (إلى) التى تدل على انتهاء الغاىة، ولما كان الخطاب لرسول الله ﷺ فى آىة آل عمران ومن قبله حدىث إلى الأنبىاء ناسبه أن ىعدى الفعل بـ(على)؛ لأن الوحى نزل علىه وعلى الأنبىاء[٢] من قبله لىوصلوه إلى أقوامهم، فلما كانت (على) للعلىة ناسب الوحى الذى نزل من السماء على الأنبىاء كما هو السىاق فى هذه الآىة، وإن كان الخطاب لرسول الله ابتداء فى الآىة حىث قال (قل) إلا أنه بعد ذلك قال (آمنا) ولم ىقل (آمنت) فمزج معه أمته فالأمر له ولأمته من بعده ولىشعر بعدم الاستعلاء علىهم فهو خىر الخلق على الإطلاق لكنه ىجلس مع أمته كواحد منهم تأدبًا وتواضعًا وتعلىمًا للعلماء والدعاة من بعده، ولىكون المنهج الأمثل فى التربىة والتعلىم.

ثالثًا : لما كان الخطاب لكل المسلمىن وعامتهم ناسبه التفصىل بذكر فعل الإىتاء مرة ثانىة فى قوله **"وما أوتى النبىون"**، ولما كان الخطاب للنبى وحدىثًا عن الأنبىاء وهم الصفوة ناسبهم الإجمال فحذف فعل الإىتاء فقال **"وما أوتى موسى وعىسى والنبىون"** وطولب الكل بالإىمان بكل الأنبىاء وعدم التفرىق بىنهم، وكل الرسل مطالبون بذلك لتعلم الدنىا أن الإسلام دىن الله ﷻ الذى أمر به كل الأنبىاء فكل الأنبىاء مسلمون دعوا إلى الإسلام، وقيل فى آل عمران إنه لما تقدم قوله تعالى﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكۡمَةٖ ﴾ [آل عمران:٨١] أغنى عن إعادة إىتائهم ثانىا، ولم يتقدم مثل ذلك فى البقرة[٣]

❁ ❁ ❁

(١) ينظر ملاك التأويل للغرناطى جـ١ ص٢٣٨.
(٢) ينظر درة التنزيل للإسكافى ص١٩.
(٣) ينظر كشف المعانى لابن جماعة ص١٠٨، وكذا الإسكافى ص١٩.

الفصل الحادي عشر

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال تعالى فى سورة الأنفال: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [الأنفال:٣٩]، الآيتان من سورتى البقرة والأنفال تأمران الأمة بقتال أهل الكفر حتى لا تكون فتنة أى كفر وشرك ويكون الدين لله، لكن الأولى قالت **"حتى يكون الدين لله"**، بينما قالت الثانية **"حتى يكون الدين كله لله"** فما علة زيادة "كله" فى الآية الثانية دون الأولى؟ وللإجابة على ذلك أقول مستعينًا بالله:

أولًا : الآية الأولى فى سورة البقرة وردت فى سياق خاص(١)، وهو الحديث عن مشركى مكة فهى تتحدث عن سرية قبل غزوة بدر فى السنة الثانية من الهجرة لما أصيب فيها أحد المشركين، وكان ذلك فى شهر رجب وهو شهر حرام فأشغب المشركون على المسلمين فى هذا الباب فرد القرآن عليهم بالأمر بقتال من قاتلنا فقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٩٠] ، فنحن لم نبدأ أحدًا باعتداء إنما نرد اعتداءهم علينا، فهم الذين بدأوا بإخراجنا من مكة واستباحة أموالنا وديارنا بعد طول تعذيبهم لنا وصدهم لنا عن دين الله طالبين منا التحول إلى الشرك طلبة فترة وجودنا فى مكة إلى أن قدر الله لنا الهجرة إلى إخواننا فى المدينة، سجل القرآن ذلك فى قوله تعالى ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة: ١٩١] ، إن فتنتكم للناس فى دينهم بالكفر والشرك أشد من القتل فالفتنة المقصود بها الكفر

(١) ينظر درة التنزيل للإسكافى ص٢٦.

والشرك، ثم يخبر بعد ذلك أن من اعتدى علينا نقتص منه، ويشترط المثلية فى عدالة سماوية حيث يقول فى القرآن : ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤] إنه الإسلام دين الرحيم الحكيم العظيم سبحانه الذى قال ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣] ، لا تقاتلوا من أجل سفك الدماء وأخذ الأموال إنما الهدف أن يكون الدين لله هذا هو هدفنا، ياليت الذين يرفعون راية الجهاد يدركون هذا فيحملون السلاح فى محله وعلى أهله ويلتزمون آدابه التى التزم بها رسول الله وذكرت فى كتاب الله لنظهر عزة الإسلام مع عدله وسماحته، والخلاصة أن الخطاب هنا لمشركى مكة بعد أن أشغبوا على المسلمين لما قتل واحد منهم فى شهر رجب، فرد القرآن بعد ذلك فى نفس السورة بقوله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة :٢١٧]، إذن الخطاب خاص بمشركى مكة لذلك لم يقل حتى يكون الدين كله؛ ذلك لأن قتل وقتال مكة لا يكون به الدين كله لله.

ثانيا : فى سورة الأنفال التى نزلت بالمدينة كالبقرة لكن البقرة أسبق نزولًا، وسورة الأنفال تتحدث عن غزوة بدر وعن الأنفال والغنائم فى بدر، وهذا المعنى سار فى السورة من أولها إلى آخرها عدا آيتين الأولى ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠] ،وفيها حديث عن اجتماع المشركين للاتفاق على كيفية التخلص من رسول الله هل بإخراجه أوحبسه أوقتله،

ولكن الآية رتبت ترتيبًا عجيبًا فلا هو ترتيب تصاعدى ولا هو تنازلى كما فى الظاهر؛ لأن القتل أتى وسطًا ولو كان تصاعديا لأتى القتل آخرًا ولو كان تنازليا لأتى القتل أولًا، ولكن عند التركيز نجد أن الآية اختارت هذا الترتيب لتلفت لمعنى مهم، ولتبين أن الترتيب تنازلى، ولتشير إلى أن الداعية المخلص والمعلم الصادق -وأفضلهم على الإطلاق رسول الله ﷺ - الداعية المخلص حبسه ومنعه من دعوته أشد عليه من قتله لأنه إن قتل يتألم مرة أما إذا حبس ومنع فيتألم آلاف المرات، وهذا المعنى وإن كان خطابًا لرسول الله ﷺ إلا أنه باق فى كل الدعاة الصادقين -نسأل الله أن يجعلنا منهم-، والآية الثانية هى قوله تعالى ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وهى تتحدث عن إعداد المشركين لغزوة أحد بعد هزيمتهم فى بدر، لكنها وردت كسنة كونية باقية فأهل الكفرفى كل زمان ومكان سينفقون أموالهم بغرض الصد عن سبيل الله، ولاحظ السين وما فيها من الحماس والعجلة مع الفاء، وثم بعد ذلك تأتى مرتين لتفسر رحلتين طويلتين في المعركة يطول النفس فيهما فى الأولى يتحسرون على ضياع الأموال دون نكاية فى المسلمين، وفى الثانية يتحسرون على ضياع بعد هزيمتهم، فلا بد من إعداد وطول نفس من الأمة لنصل لوعد الله فى قوله **"ثم يغلبون"**، بعد هذه الآية التى وردت كسنة كونية باقية ما بقى مسلمون وكافرون بعدها وردت هذه الآيات العامة فى خطاب أهل الكفر ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ** ﴾ [الأنفال: ٣٨-٤٠] فالخطاب لأهل الكفر بعمومهم(١) وانظر إلى قوله تعالى **"وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين"** وما فيها من عموم لسنة كونية سابقة لاحقة يهددون بها، هنا يقول **"ويكون الدين كله لله"** لأننا إن قاتلنا الكفرة كل الكفرة وأبطلنا الكفروالشرك سيكون الدين كله لله، وهذا مأخوذ من

(١) ينظر ملاك التأويل للغرناطى جـ١ ص٢٦٢.

التوكيد بـ(كل) الذى خلت منه سورة البقرة[1]، أما فى سورة البقرة فكان الحدىث خاصًا بمشركى مكة وقتالهم لا ىجعل الدىن كله لله فلما كان الحدىث هنا عن أهل الكفر عمومًا أتى قوله **"وىكون الدىن كله لله"**ولذلك ختمت بقوله **"فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصىر"** وهو خبر ىراد به الوعد والوعىد كما سبق ذكره فى غىر هذه الآىة -والله أعلم-.

❁ ❁ ❁

(١) ينظر دراسات لأسلوب القرآن للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة جـ١١ ص٩، وذلك فى القسم الثالث الجزء الرابع، ط دار الحديث.

الفصل الثاني عشر

قال تعالى فى سورة البقرة ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣١،٢٣٢] وقال تعالى فى سورة الطلاق: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق:٢]

الآيات من سورة البقرة وسورة الطلاق تتحدث عن أحكام الطلاق وآدابه التى ينبغى الالتزام بها طاعة لله واستعدادًا للقائه، لكنها فى سورة البقرة عبرت بالسراح وفى سورة الطلاق عبرت بالفراق فقال تعالى فى سورة البقرة "**فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف**"، بينما فى سورة الطلاق قال "**فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف**"، فما الفرق بينهما ولم خُصت كل سورة بما ورد فيها؟ أضف إلى ذلك أنه فى سورة البقرة قال "**ذلك يوعظ به**"بينما فى الطلاق قال "**ذلكم يوعظ به**" فما علة الاختلاف؟ وللإجابة على ذلك أقول مستعينًا بالله:

أولًا : السياق مختلف بين السورتين مع أن السورتين تتحدثان عن الطلاق إلا أن كل آية تتحدث عن شئ معين وحكم معين من أحكام الطلاق، فسورة البقرة الآية تتحدث عن الإحسان فى الطلاق وعدم الإضرار بالمرأة بإمساكها قبل انقضاء عدتها لا رغبة فى إبقائها وإنما رغبة فى إضرارها، بينما سورة الطلاق هدفها الحديث عن العدة

والتطلىق للسنة الذى به تقصر العدة على المرأة وعدم التطلىق للبدعة الذى به تطول العدة على المرأة فتقول "**وإذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن**"، بدلىل الحدىث عن عدة من لم تحض والتى ىئست من المحىض بعد آىتنا هذه، ولفظة الطلاق هى الأصلىة الصرىحة فى الدلالة علىه باتفاق الفقهاء وهى الأشىع فى كتاب الله بدلىل ورودها فى سورة البقرة فى سبع عشرة آىة عشر مرات فى هذا المقطع الصغىر من السورة، والشافعىة ىرون أن الصرىح من الطلاق ألفاظ ثلاثة الطلاق والفراق والسراح، بىنما غىرهم ىرى أن الصرىح هو لفظة الطلاق فقط لذلك فإن الطلاق هى الأشىع، تلك مقدمة نعتمدعلىها لمعرفة لماذا أتى السراح هنا والفراق فى سورة الطلاق، وللتفرىق بىن السراح والفراق فى السورتىن ندرك الأصل اللغوى لكلٍ ثم ننظر فى سىاقات كلٍ ىقول الأصفهانى (السرح شجر له ثمر، وسرحت الإبل أصله أن ترعىه السرح، ثم أطلق لكل إرسال فى الرعى، والتسرىح فى الطلاق نحو قوله تعالى﴿ **أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ** ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقوله ﷻ : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا** ﴾ [الأحزاب:٤٩] مستعار من تسرىح الإبل كالطلاق فى كونه مستعار من إطلاق الإبل)[1] فالسراح من إطلاق الإبل لترعى فهو فىه خىر لها لذلك نجد أن التسرىح لم ىرد فى كتاب الله إلا موصوفًا بالإحسان أو بالمعروف ولم ىرد مجردًا كقوله تعالى ﴿ **فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا** ﴾ [الأحزاب:٢٨] وكالآىات السابقة لذلك تجده فى مواطن الأمر بالإحسان وعدم الإضرار كآىتنا هذه، أما الفراق فأصله من الفرق وهو(ىقارب الفلق لكن الفلق ىقال اعتبارًا بالانشقاق والفرق ىقال اعتبارًا بالانفصال.... وفرقت بىن الشىئىن فصلت بىنهما.... والفراق والمفارقة تكون بالأبدان)[2] فالفراق واضح فى معنى الانفصال لذا أتى بعده حدىث عن عدة وحقوق مالىة وحقوق الصغىر من رضاعة ونفقة وغىرهما، فلما كان الحدىث عن الإحسان إلى المرأة وعدم الإضرار بها فى الطلاق أتى بالسراح فى البقرة لىناسب هذا لأنه مقرون بالإحسان والجمال والمعروف وفىه سوق خىر إلى الآخر مما ىناسب هذا السىاق، أما فى الطلاق فلما كان الحدىث عن

(١) المفردات ص٢٢٩ وما بعدها.
(٢) المفردات ص٣٧٧.

العدة وعدم تطوىلها على المرأة والتطلىق للسنة وعدم التطلىق للبدعة وتحدث عن الحقوق المالىة كان الأنسب ذكر المفارقة التى تدل على الانفصال بدلىل قوله ﴿ **وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء:١٣٠].

ثانىا : فى آىة البقرة **"وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن"** أتت بمعنى المقاربة فى الأول لأنها لو وصلت إلى نهاىة العدة وبلغت أجلها فلىس له حق الرجعة والإمساك إذن المعنى قاربن بلوغ الأجل، والآىة التى تلىها **"إذا بلغن أجلهن"** على حقىقتها لأنها تتحدث عن رجل طلق رجعىا ثم انتهت العدة فلا رجوع إلا بعقد جدىد، وفى سورة الطلاق المقصود قاربن بلوغ الأجل كالآىة الأولى فى البقرة لكن فى البقرة قال **"ذلك ىوعظ به"** وفى الطلاق **"ذلكم ىوعظ به"**، وبالتدقىق نرى أن ذلك ىشار به للبعىد تعظىمًا له والمىم حرف جمع؛ فلما كان الحدىث عن المفرد فى البقرة قال ذلك فهى تشىر إلى عضل ولى المرأة للمرأة ومنعها من الرجوع لزوجها الذى طلقها رجعىا وانتهت عدتها وأراد مراجعتها ورفض الولى خاصة إذا كانت تردى الرجوع وزوجها فى حاجة إلىها وهى فى حاجة إلىه فالإشارة هنا لمفرد، أما فى الطلاق فالإشارة إلى جمع فالآىة تقول: ﴿ **فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا** ﴾ [الطلاق: ٢] فـ"ذلكم" إشارة إلى **"فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف"**، وإلى **"وأشهدوا ذوى عدل منكم"**، وإلى **"وأقىموا الشهادة لله"** فهذه ثلاثة أمور تشىر إلىها الآىة بصىغة الجمع "ذلكم"، لكن ىبقى سؤال فى البقرة بعد قوله **"ذلك ىوعظ به من كان ىؤمن بالله واليوم الآخر"** بعدها قال **"ذلكم أزكى لكم وأطهر والله ىعلم وأنتم لا تعلمون"** فلم عبر بصىغة الجمع[1] مع أن المشار إلىه مفرد؟ الإجابة إن هذه الآىة آخر ما ورد من الحدىث فى الطلاق، وبعدها تحدثت الآىات عن الرضاعة والعدة والحقوق المترتبة على الطلاق بأنواعه فلما كانت الأخىرة فى الحدىث عن الطلاق كانت الإشارة بالجمع إشارة إلى كل الأحكام السابقة الواردة فى السورة عن الطلاق، وإن كانت الآىة تشىر إلى الحكم الوحىد الذى فى الآىة فقط

(١) ينظر البرهان فى توجيه متشابه القرآن للكرمانى ص٨٥.

على الظاهر وهو عدم منع الزوجة من العودة لزوجها الذى طلقها ويريد أن يعيدها بعقد جديد بعد انقضاء عدتها، وهو إن كان أمرًا مفرداً إلا أنها عبرت بصيغة الجمع لأنها تقول **"ذلكم أزكى لكم وأطهر"** فتشير إلى أن هذا الحكم أزكى لكم لأن فيه مجموعة من الفوائد توصل للطهر والنقاء فى التعامل على أساس سوق الخير للغير فمثلًا ذلكم أزكى لكم لأن فيه إحسانًا للمرأة التي تريد زوجها، وفيه إحسان للرجل الذى يريد امرأته، وفيه إحسان للأولاد الذين يريدون الأب والأم معًا، وفيه إحسان بصلاح الحال بين الولى والزوج الذى يريد إعادة زوجته فالزواج ينشئ صلة بين عائلتين الطلاق قد يضيع هذه الصلة، فيلاحظ أن هذا أزكى لنا لأن المستفيد منه تربويا وإيمانيا وقلبيا أناس كثيرون لذلك عبر بصيغة الجمع -والله أعلم-.

الفصل الثالث عشر

قال تعالى فى سورة البقرة ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٦] ، وقال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢٤١] وقال تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾[الأحزاب: ٤٩] الآيات من سورتى البقرة والأحزاب تتحدث عن الطلاق والمتعة بعده للمرأة لكنها فى الأولى قالت **"حقًا على المحسنين"** وفى الثانية **"حقًا على المتقين"**، ثم فى آية البقرة الأولى استخدمت حرف الشرط (إن) بينما فى سورة الأحزاب أداة الشرط (إذا) فما علة ذلك؟ وللإجابة على هذا أقول مستعينًا بالله:

أولًا : لقد اختلف العلماء حول متعة المطلقة على آراء كثيرة[(١)] فمنهم من يرى أن المتعة تجب لكل مطلقة لعموم قوله تعالى ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢٤١]، ولقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب:٢٨] فقد كن مفروضًا لهن مدخولًا بهن، ومن قائل إنها تجب للمطلقة قبل الدخول سواء كانت مفروضًا لها أو غير مفروض لها لعموم قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ

(١) ينظر فى الخلاف الفقهى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى المجلد الثانى جـ٣ ص١٨٠ وما بعدها؛ ففيه بحث قيم، ط دار الفكر.

طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩] ومن قائل إنها تجب للمطلقة قبل الدخول وقبل الفرض لقوله تعالى: ﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٦][(١)] وقد نصر هذا الرأى الأخير شيخنا الدكتور إبراهيم الخولى مستدلًا بآيات البقرة التى جعلت المتعة للمطلقة قبل الدخول وقبل الفرض مقابل نصف المهر للمطلقة قبل الدخول وبعد الفرض فى الآية التى تليها، ومقابل المهر كاملًا للمدخول بها ونسف الادعاء بأن المتعة مقابل ما تمتع به الرجل من المرأة مستدلًا بأن المتعة متبادلة بينهما ومستدلًا بأن الآية الأولى جعلت المتعة للمطلقة قبل الدخول وقبل الفرض ولا دخول ولا تمتع كما يدعون[(٢)] ومنهم من يرى أن المتعة للمطلقة قبل الدخول وقبل الفرض وجوبًا ولغيرها استحبابًا[(٣)] ولكلٍ وجهة واستدلال ليس هذا موطن بسطه.

ثانيا : الدارس للقرآن وبخاصة آيات الأحكام يجد خطين يسيران متوازيين هما خط التكليف وخط التثقيف، ويقصد بهما ألفاظ تدل على المعنى الفقهى، وألفاظ تربوية تأهيلية للقلوب مروضة لها محركة لمشاعرها الإيمانية لتستجيب للأوامر الإلهية، وبالتركيز فى هذين الخطين وإدراك الفوارق بينهما تحل مشاكل كثيرة وقد تحدث الفقهاء والأصوليون فى هذا من قبل بألفاظ مختلفة، فتجدهم يقولون قيد مقصود وقيد غير مقصود ويمثلون لذلك بأمثلة منها آية المحرمات فى قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ

(١) ينظر مختصر تفسير ابن كثير جـ١ ص٢٨٠ وما بعدها.
(٢) فى مقال كبير فى جريدة الشعب فى التسعينيات.
(٣) ينظر تفسير السعدى ص٩٦ ط مكتبة الرحاب.

﴿ أَبْنَآؤُكُمْ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٣]، فيقولون من **"نسائكم اللاتى دخلتم بهن"** قيد مقصود أى إنه يجوز إن عقدت على الأم ولم تدخل بها يجوز أن تطلقها وتتزوج ابنتها، أما ﴿فِى حُجُورِكُم﴾ فيقولون إنه قيد غير مقصود فسواء كانت فى حجرك أو فى غير حجرك لا تحل لك، وإن كان الظاهرية يرون أنه قيد مقصود فلو لم تكن فى حجرك لحلت لك بعد وفاة أمها، والذين يقولون قيد غير مقصود ويرونه تربوا تأهيلا للقلوب مروضًا لها فيقولون لابد إذن من علة لورود هذا القيد مادام غير مقيد للحكم، وللأمانة فإنى أرفض القول بأنه قيد غير مقصود، بل الأفضل أن يقال تربوى إيمانى غير مقيد للحكم لأنه لا شئ غير مقصود فى القرآن، وأدل شئ على ذلك أن قوله: ﴿ٱلَّتِى فِى حُجُورِكُم﴾ له فوائد كثيرة ومعانى عظيمة منها قطع الطمع فى بنت الزوجة ابتداءً، ومنها التذكير له أنها فى حجره كابنته فلا يحل له أن يفكر فيها، ومنها أنها فى حجره كابنته فلابد أن يعاملها معاملة ابنته من إحسان وشفقة ورعاية، ومنها التنبيه على الواجب الأمثل عليه من عدم التفريق بينها وبين أمها وإعانة أمها فى تربيتها.

معذرة هذا مثال أطلت معه كمقدمة لما أريد من بيان هذا المنهج فى التعامل مع القرآن عمومًا وآيات الأحكام خصوصًا، وبعد هذا فهل من الممكن أن أقول إن لكل مطلقة متعة بدليل عموم قوله تعالى **"حقًا على المتقين"** وبدليل الحديث عن نساء النبى فى سورة الأحزاب فقد كن مدخولًا بهن مفروضًا لهن والرد على التعبير بالإحسان وعلته والتقوى وعلتها هو أنه عبر بذلك مع الفرض فى قوله (متعوهن) وهو فعل أمر يقتضى الوجوب إن لم يصرفه صارف، وبدليل قوله (حقًا) وعبر بالمحسنين والإحسان هو[1](فوق العدل وهو أن يعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له) كما عرفه الأصفهانى عبر به هنا من باب تأليف قلب يجد أنه لم ينتفع منها بشئ، بل لم يلتزم بشئ بدليل أنه لم يفرض لها، يأتى هنا القرآن ليبين لهذا القلب أن ذلك من باب الإحسان المأمور به تطييبًا لخاطرها[2] وجبرًا لها على ما وُعدت به وتشوقت إليه ثم حُرمت

(١) المفردات للراغب الأصفهانى ص١١٩.
(٢) ينظر كشف المعانى لابن جماعة ص١١٧.

منه، ولا يستفاد من لفظة الإحسان عدم الوجوب فهذا لم يقل به أحد فى المطلقة قبل الدخول وقبل الفرض يدل لهذا الفهم الآية الثانية **"حقا على المتقين"** العامة التى أوجبت المتعة للكل ومن المطلقات التى تدخل تحت هذا العموم التى ختمت آيتها بقوله **"حقًا على المحسنين"**، والتقوى من معانيها حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور كما عرفها الأصفهانى(١)وهذا المعنى يؤكد ما ذكرته سابقًا ويعلل لختام هذه الآية بهذا الختام، لكن مع ذكر أن المتعة لكل مطلقة نذكر كيف كانت حتى لا يظن أن الإسلام ظلم الرجل اسمع ماذا قاله السلف فيها؛ فالشعبى يقول الوسط درع وخمار وملحفة وثلاثتها تلبسه المرأة عند خروجها إذن المطلوب ثوب تخرج به المرأة، وقال الشافعى لا يجبر الزوج على قدر معلوم إنما يقبل منه ما يقع عليه اسم المتعة، وابن عباس يرى متعة المعسر ثلاثة أثواب تفصيلها كما ذكرت سابقًا(٢)إنها عظمة الإسلام ورحمته.

ثالثًا : فى الآية الأولى قال **"إن طلقتم"** لأن الحديث عن الطلاق وهو قليل قبل الدخول وقبل الفرض بل مستبعد لذلك عبر بـ(إن) التى تفيد الشك، أما فى الأحزاب فعبر بـ(إذا) لأنها داخلة على النكاح ونكاح المؤمنات كثير غالب فناسبه (إذا) وآية الأحزاب مسوقة لبيان أن المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها لذلك عبرت بـ(ثم) فى إشارة واضحة إلى أن طول مدة

العقد مع عدم الدخول لا تؤثر فى العدة فما دامت غير مدخول بها فلا عدة عليها، ومنهم من يرى حملها على الاستبعاد بمعنى أن الطلاق مستبعد قبل الدخول لأنه لم ير منها شيئًا يحمله على الطلاق، وهو بعيد -والله أعلم-.

❁ ❁ ❁

(١) المفردات ص٥٣١.

(٢) ينظر مختصر تفسير ابن كثير جـ١ ص٢٨.

الفصل الرابع عشر

قال تعالى فى سورة البقرة ﴿ لله مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] ، وقال تعالى فى سورة آل عمران ﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [آل عمران: ٢٩]

الآية الأولى في سورة البقرة تخبر بملك الله لما فى السموات والأرض، وأن أعمالنا ما أبدىناه وما أخفىناه منها سىحاسبنا علىها فىغفر لمن أراد وىعذب من أراد لأنه على كل شئ قدىر، والثانية فى سورة آل عمران تخبر أن ما أخفىناه فى صدورنا أوأبدىناه الله ىعلمه بل وىعلم ما في السموات وما فى الأرض وأنه على كل شئ قدىر، لكن فى الآية الأولى قُدم الإبداء على الإخفاء بىنما فى الثانية العكس فما علة ذلك؟ وللإجابة على ذلك أقول مستعىنًا بالله:

أولًا : بالنظر فى سىاق الآية الأولى وألفاظها تتبىن العلة فى تقدىم (تبدوا) على (تخفوه) فقد وردت الآية فى آخر سورة البقرة عقب الحدىث عن الربا وعن الدىن وأحكامه فأخبرت بملك الله لما فى السموات وما فى الأرض الذى ىترتب علىه تحكمه سبحانه فى كل شئ ومن ثم قدرته تلك القدرة التى ىترتب علىها الحساب، فكان المقصود الحساب وذلك واضح فى قوله تعالى **"ىحاسبكم به الله"** والضمىر فى (به) ىعود على ما فى أنفسنا مما نبدىه أو نخفىه فالمقصود بىان أن الكل محاسب علىه مما شق على الصحابة وامتلأوا خوفًا من شدة إىمانهم وىقىنهم فأتوا رسول الله وجثوا على الركب وقالوا ىا رسول الله قد أنزلت علىك هذه الآية ولا نطىقها فقال صلى الله علىه وسلم (أترىدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابىن من قبلكم سمعنا وعصىنا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإلىك المصىر) فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله فى إثرها **"آمن الرسول"** إلى آخر الآية فلما فعلوا ذلك نسخها الله

فأنزل الله **"لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها"** إلى آخر الآية[1] فلما كان المقصود من الآية الإخبار بالمحاسبة بدأ بالظاهر فى قوله (تبدوه) لأنه الذى يتعلق به الحساب لأننا محاسبون على ما أبدينا من قول وفعل.

ثانيا : أما الآية الثانية فقد وردت فى سورة آل عمران بعد الحديث عن طلاقة قدرته وعظيم عزته وأن الملك بيده يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء وأن الكون بيده يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل، وبعدها حذر خلقه من اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين إلا فى حالة تسلط الكافرين وعدم قدرة المؤمنين على المواجهة فيجوز أن نتقى منهم تقاة باللسان على أن يكون القلب بالإيمان عامرًا ساعتها يكون ما أبديناه لهم تقية خلاف ما أخفيناه، بعدها أتت هذه الآية تخبر بعلم الله لما تخفيه وما تبديه بل ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض وهو على كل شئ قدير، إذن بان أن الآية مقصودها الحديث عن علم الله، وعلمه يتعلق بما خفى وما ظهر بلا فرق، بل الترتيب فى العلم الأول فيه ما خفى لأنك تخفيه فى نفسك ثم تبديه، الله يعلمه وهو فى نفسك ويعلمه بعدما أبديته والترتيب واضح لذا يقول أبو السعود فى التفريق بين الآيتين (وأما تقديم الإبداء على الإخفاء - يقصد فى البقرة- على عكس ما فى آل عمران فلما كان المتعلق بما فى أنفسهم ههنا هو المحاسبة والأصل فيها الأعمال البادية وأما العلم فتعلقه بها كتعلقه بالأعمال الخافية كيف لا وعلمه سبحانه بمعلوماته متعال عن أن يكون بطريق حصول الصور بل وجود كل شئ فى نفسه فى أى طور كان علم بالنسبة إليه تعالى، وفى هذا لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة خلا أن مرتبة الإخفاء متقدمة على مرتبة الإبداء إذ ما من شئ يبدى إلا وهو عند باديه قبل ذلك مضمر فى النفس متعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية[2]) والمعنى واضح كما ترى فالمقصود أن الإخفاء مقدم هنا على الإبداء لأن الآية تتحدث عن علمه سبحانه وعلمه يتعلق بالاثنين معًا بلا اختلاف، والإخفاء يسبق الإبداء فى العلم، فما تخفيه أنت ثم تبديه الله يعلمه حالة الإخفاء وحالة الإبداء على السواء -والله أعلم-.

بينما يرى العلامة الغرناطى أن (إبداء الشيء وإخفاء خلافه فى المعتقدات صفة المنافقين...، وقد أعلم الله أن المنافقين هم الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتوعدهم بالعذاب على ذلك، وقد تقدم آية

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان برقم ١٢٥، كما ينظر مختصر تفسير ابن كثير ص٣٢٨.
(٢) ينظر تفسير أبى السعود جـ١ ص٣١٥.

آل عمران قوله -ناهيًا وزاجرًا- ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾[آل عمران: ٢٨]، وحذر من ذلك أشد التحذير إلا عند التقية، ثم أتبع ذلك بتأكيد التحذير فقال ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران:٢٨] فلما نهاهم عن المرتكب الذى به امتياز المنافقين كان آكد شىء وأهمه إعلامهم بأنه سبحانه يعلم ما يخفون كعلمه ما يبدون؛ لبناء المنافقين كفرهم على ما جهلوه من علمه سبحانه بخفيات ضمائرهم؛ فهذا وجه تقديم الإخفاء فى آل عمران؛ أما آية البقرة فلم يجر فيها ذكر النفاق وإنما الخطاب فيها للمؤمنين فقدم فيها بادى أعمالهم بناءً على سلامة بواطنهم وتنزههم عن صفة المنافقين(١).

❁ ❁ ❁

(١) ينظر ملاك التأويل للغرناطى جـ١ ص٢٨١ وما بعدها بتصرف

الخاتمة

لقد خلوت بكتاب الله وراعنى ما وجدت من دلالات بلاغية فى المتشابه من الآيات، فبدأت فى هذا البُحيث فرصدت المتشابه، ثم درسته فى فصول متتابعه أُفرد فى كل فصل الآية من سورة البقرة وما يشبهها من الآيات فى السور الأخرى، ثم درست سياق كلٍ وسبب نزوله باحثًا عن علل الاختلاف لماذا قدم هنا وأخر هناك؟ لماذا عرف هنا ونكر هناك؟ لماذا ذكر هنا وحذف هناك؟ إلى آخر هذه الفوارق باحثًا عن الإجابة عن هذه الأسئلة فكان هذا البحث بتوفيق الله، فما كان فيه من صواب فمن الله وما كان فيه من تقصير فمنى وأستغفر الله، والله أسأل أن يتقبله وأن يعين على إكماله فى بقية السور ولله الحمد والمنة.

وختاما:

وما أبرئ نفسى إننى بشر ∴ أسهو وأخطئ مالم يحمنى القدر .

المصادر والمراجع

١. البحر المحيط لأبى حيان، ط دار الفكر بيروت.
٢. البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان للكرمانى، ت عبد القادر أحمد عطا، ط دار الفضيلة.
٣. التحرير والتنوير لابن عاشور، ط تونس.
٤. التفسير الكبير للرازى، ط مكتبة الإيمان.
٥. تفسير أبى السعود، ط بيروت.
٦. تفسير السعدى، ط مكتبة الرحاب.
٧. الجامع لأحكام القرآن للقرطبى، ط دار الفكر.
٨. حاشية الشهاب على البيضاوى، ط دار الكتب العلمية بيروت.
٩. دراسات لأسلوب القرآن للشيخ محمد عبدالخالق عضيمة، ط دار الحديث.
١٠. درةالتنزيل وغرة التأويل للإسكافى، ط دار المعرفة.
١١. صحيح البخارى، ط الرسالة.
١٢. صحيح مسلم بشرح النووى، ط دار الغد.
١٣. فرائد مطالع سور القرآن للباحث، ط كلية اللغة العربية بالقاهرة سنة ٢٠١٣.
١٤. الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى، ط دار المعرفة.
١٥. الكشاف للزمخشرى، ط دار الكتاب العربى.
١٦. كشف المعانى فى المتشابه من المثانى لابن جماعة، ت د/عبد الجواد خلف، ط الجامعة الإسلامية بباكستان.
١٧. مختصر تفسير ابن كثير، ط التوفيقية، ت هانى الحاج تخريج الألبانى، وتعليق الشيخ ابن عثيمين رحمهم الله.
١٨. مسائل الرازى من غرائب آى التنزيل، ط مصطفى الحلبى.
١٩. المفردات للراغب الأصفهانى ط دار المعرفة بيروت.
٢٠. ملاك التأويل فى توجيه المتشابه للغرناطى، ط دار الكتب العلمية.
٢١. نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى، ط بيروت.

الفهـــرس

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
المقدمة	٧٩١
الفصل الأول	٧٩٣
الفصل الثانى	٨٠٥
الفصل الثالث	٨٠٩
الفصل الرابع	٨١٦
الفصل الخامس	٨٢٠
الفصل السادس	٨٢٨
الفصل السابع	٨٣٥
الفصل الثامن	٨٤٠
الفصل التاسع	٨٤٩
الفصل العاشر	٨٥٧
الفصل الحادى عشر	٨٦٠
الفصل الثانى عشر	٨٦٤
الفصل الثالث عشر	٨٦٩
الفصل الرابع عشر	٨٧٤
الخاتمة	٨٧٨
المصادر والمراجع	٨٧٩
الفهرس	٨٨١

تم بحمد الله